
عيون البنفسج
علاء الديب

عيون البنفسج

علاء الديب

فهرس

مقدمة

"تامر فكار" شاعر مصري من مواليد ١٩٧٥ بالسنة النهائية بكلية الآداب قسم فلسفة.

ولد في الخليج، ابن منير فكار أستاذ الجامعة السابق (رواية أطفال بلا دموع) والسيدة سناء فرج ،رواية قمر على المستنقع).

هذه بعض من اعترافاته وصور من حياته، أضاف إليها الكاتب أشياء قليلة من عنده.

(١)

خرجت مسرعًا صباح الجمعة قبل الصلاة حتى لا تحاصرني في شقتي أحزان الوحدة الخانقة، شوارعي القديمة في القاهرة في فصل الخريف بها لمحة من جمال لم يقتله بعد تلوث البيئة. أهرب إليه، لكنه يراوغني وتنتهي الشوارع دائمًا إلى غبار جاسم.

لو أن لي من العمر ألف سنة لما تحركت ثقيلاً هكذا، فاقدًا للحماس، هل هي آثار الليلة الماضية، والكيوف المختلطة والدخان الذي لا ينقطع، أم هو الثقل المعتاد والإرهاق الذي لا مبرر له الذي أشعر به كثيرًا فوق قلبي.

جسدي الآن لا حدود له، لا خطوط خارجية تفصل بيني وبين الناس، لا ملامح ولا هوية. في أية لحظة قد أتراكم أشلاء بشرية إلى جوار حائط يعبرُني مارة مسرعين. صارت الشوارع مهدرة الطابع والمعنى.

فدخلت إلى مقهى "الاستقلال" القديم الواسع، كل يوم يزداد قذارة وإهمالاً، الزجاج الواسع العريض قذر وتحت الكراسي والمناضد تراكمت الأوراق والطين وقذارة الزبائن العابرين.

رائحة الدخان العطن والخمر الرخيصة التي تقدم في الركن الداخلي مختلطة مع رائحة دورة المياه التي لا تصلح ولا تنظف أبدًا هبت علي وألقت بي على مقعد مجاور للباب.

جئت إلى هذا المقهى مرة وأنا صغير مع أبي وشربت مشروبًا أحمر باردًا في كوب كبير، كان مكانًا كبيرًا جميلاً مفتوحًا والشمس تسقط على البلاط النظيف.. ابتسم الجرسون العجوز يومها في ود وحرارة.

إلى نفس هذا المقهى، رجعت طوال عمري، عندما صرت وحيدًا في هذه المدينة المزعجة، رجعت إليه دائمًا كما تهرش في جرح قديم.

الآن.. فراغ موجع يعشش بين اللحظات.. قطع من "الدمينو" الأبيض المعدول والمقلوب.. تخطف عيوني وقلبي، وتعود تتناثر أمامي من جديد.

جلست في المقهى منهكًا وحيدًا أنتظر في ــ لا مبالاة ــ كيف سيمضي بي النهار.

(٢)

اشترى كل بضعة أيام قلما جديدًا، أخيرًا أهداني "حسين" قلما جديدًا وقال: لا أظنك ستكتب به شيئًا له قيمة، أتأمل هذا القلم الأسود كثيرًا. تنتابني ــ أحيانًا ــ رغبة في أن أسحقه مثل عقب سيجارة.. في القلم خاصية سحرية غريبة: هو يستدعي حسين دائمًا للحضور.

عندما يحضر صديقي تنتابني تجاهه مشاعر مختلطة. أكون فعلاً مشتاقًا إليه، ولكن شيئًا في وجوده يضايقني، كأنه يعطلني عن عمل مهم، أو لعلني أدعي ذلك. دقائق ويصبح اللقاء حميمًا جديدًا ومفاجئًا، خاصة إذا استطاع أن يلف لنا سيجارتين.

فجأة دخل المقهى. وانحط أمامي صامتًا، فرد ساقيه الرفيعتين الطويلتين أمامه، وشد جسده على الكرسي فعرفت أنه كتب قصيدة جديدة.

كنت أشعر به متوترًا إلى جواري وأنا أقرأ نفس الأبيات التي كتبت بنفس القلم على نفس الورق بذلك الخط الواضح والمعتنى به، لم أستطع أن أرفع إليه نظري بسرعة بعد أن فرغت من القصيدة.

كان يقرأ وجهي جيدًا، أحسست بأنه يعيد ترتيب نفس الكلمات القديمة وأن لا شيء حقيقي يتكون من ذلك، التفنيط، المستمر لأوراق الكوتشينة.

أنا متأكد أنه يعرف رأيي الحقيقي في قصائده، كما أظنه يعرف أيضًا أنه صديقي وأنني أحبه.

أسترد أوراق القصيدة في هدوء وأنا أقول الكلمات التي تقال عادة في هذه المواقف ووقع علينا صمت مريب زاد من كآبة المقهى ومن ثقل تلك الساعات الثقيلة التي تسبق العصر وتعقبه.

أقترح أن نقوم أو نبحث عن طعام واقترحت ألا نفعل شيئًا.

وبقينا جالسين نقلب في بعض المجلات ونتفرج على العابرين.

رأيي الحقيقي الذي أخفيه عن حسين كاظم وحتى عن نفسي أن الشعر أقدار مقدرة وأنه طرق ومسالك كتب علينا أن نسيرها ونقولها ونعيشها، الشعر حياة أخرى ألهمنا بها ووهبت لنا، أما كل الرطان والكلام الكبير عن المدارس والحداثة وما قبلها وما بعدها فيه مجموعة من حيل السحرة

التي تبتلعها كلمة شعر حقيقية أو بيت وإيقاع صادق نصل إليه.

أخفي اعتقادي هذا حتى عن نفسي وأجد نفسي وسط مشاحنات حمقاء، وحوارات عقيمة مجهدة للروح حتى مع حسين إلا أنه الوحيد الذي أستطيع معه أن أضحك حتى تدمع عيناي من كل تلك النصوص والأشعار الفجة التي يكتبها غيرنا والتي تشبه نقوشًا كاريكاتورية عاجزة عن التعبير.

بعد أن دهمنا المساء ونحن ما زلنا على المقهى، انتهت "القعدة" نهاية حمقاء فقد مزق حسين قصيدته الجديدة إلى قطع صغيرة ووضعها في "الطقطوقة" ودون أن أشعر مده يده إليها بعود كبريت مشتعل.

عندما تصاعد اللهب من القصيدة جاء الجرسون مفزوعًا، ولولا أنه يعرفنا لطردنا واتهمنا بتدبير عملية إرهابية في المقهى.

* * * * *

(٣)

عندما عدت مع أمي من الخليج وبدأت أذهب إلى مدرسة المستقبل الخاصة، كنت طفلاً عليلاً متوحدًا في الثامنة. لم أكن أعرف أحدًا ولا أريد أن أعرف، أعيش داخل شرنقة جافة مؤلمة تسبب لروحي ألمًا شديدًا ونوبات متكررة من العدوانية والغربة في الانتقام، كل وجوه الأولاد والبنات تبدو قبيحة مخيفة.

لم أكن أرغب في أن أقترب من أحد أو أحدق في وجه أحد، أسرع إلى شقة أمي في مصر الجديدة أشرب وجهها وجسدها صامتًا، وأدبر مقالب مزعجة لأختي "لمياء" أحسن شيء أن أخلو إلى نفسي أراقب ظل أوراق نباتات الظل التي زحمت بها أمي الشقة.

كانوا يسخرون من لهجتي ومن نطقي لكلمات "الدجاج" و"السيارة" ومن عدم معرفتي بألعابهم ومصطلحاتهم التي كنت أكتشفها بفرح حقيقي واهتمام. لم يسمحوا لي بمكان بينهم وأنا لم أكن أريد. سادت أيامي الأولى هنا معهم عدوانية وإعجابًا بشروري الصغيرة.

الدروس سخيفة جدًا والحصص فارغة، أراقب، ونادرًا ما أشعر أن ما يحدث حولي حقيقي، يعطيني مرضي المتكرر فرصة لأن أتغيب كثيرًا، وأن أكون مختلفًا وغامضًا حتى بالنسبة للمدرسين والمدرسات.

انتابت المدرسة كلها حمى غريبة أعلم أن شخصية كبيرة سوف تزورنا بعد أيام، المديرة والمدرسون والمدرسات والأولاد وحتى المباني. الترتيبات تلغي الحصص وتوقف الدروس.. لا أفهم سر تلك الغرابة التي انتابت تصرفات الجميع وأخلاقهم.. كان هناك شيء قبيح يجب إخفاؤه جيدًا، شبكة من خيوط العنكبوت والعلاقات المتعلقة بدروس أو صفاقات جانبية كان يتم استبدالها بأواني زرع، ونخل كالأقزام يرص على جوانب الممرات الرملية الملونة.

الأستاذ فوزي ناشد مدرس الرسم كان هو الكائن الوحيد الذي يثير اهتمامي وأحاول الاقتراب منه.. كان رجلاً جميلاً قصيرًا يمتلك هدوءًا غريبًا وابتسامة ساحرة.

في وسط هذه الحمى الجديدة التي انتابت المدرسة اختار هو مكانًا بعيدًا في آخر حديقة المدرسة، وأخرج منضدة كبيرة ليضعها في الشمس وملأها بعلب كبيرة من الألوان

والأوراق والأقلام. جلس هناك مع بنتين كبيرتين يرسمون صورًا ملونة لكي تعلق في المعرض الذي سيقام من أجل الزيارة.

وقفت بعيدًا قريبًا حتى لاحظني وناداني بيده وابتسامته أن أقترب. أحببت الرجل ساعتها بلا حدود، لم يتكلم كثيرًا لكنه وضع أمامي أوراقًا وألوانًا كثيرة، وابتعدت المدرسة وكأن المكان كله غرق في صمت.

لم أكن أعرف كيف أرسم حتى أمي كانت تقول لي دائمًا: "شوف لمياء بترسم حلو إزاي" كنت أسرق أوراق رسومها وأمزقها، وأرسم أنا وأمزق أوراقي أيضًا، أما يومها فقد كان كل شيء جميلاً. الورقة والألوان والخطوط والأشكال تضحك لي وتكاد تتحرك، وقف إلى جواري وقال: ضع ما تشاء من الألوان، النقط الملونة على الورقة تكلم بعضها، هل تسمعها؟ وضحك وضحكت وضحكت البنتان، أمضيت اليوم كله معهم.. أرسم وأرسم إلى الأبد. في آخر النهار علقنا لوحتين من رسمي قرب مدخل المدرسة. سألت المديرة عن مَنْ رسم، ووضعت المدرسة الفظيعة اسمي على واحدة، صحبني الأستاذ فوزي أنا وواحدة من البنات إلى البيت بعد

أن أخبر أمي بالتليفون أننا سنتأخر لأنني أرسم لوحات للمعرض.

في الشارع تحدث إليّ كثيرًا، ووضع يده على كتفي لم يكن أطول مني كثيرًا، أخبرني أنه يجهز أوراقه لأنه سيسافر إلى الخارج بعد أسابيع، على باب الشقة لم أكن أريده أن يذهب.

تمنيت أن يدخل وأن يبقى معي إلى الأبد.



(٤)

شقة "شوقي عامر" كأنها ميدان التحرير أغرفة الانتظـــار في عيادة طبيب مشهور. "شوقي عامر" كاتب ورسام وتاجر لوحات وآثار، هو صديق أبي وزميله الذي لم يعـــد يـــراه. الرجل والشقة كأنهما قلب القاهرة، بدونهما لا تكون. عنـــدما لا يكون هناك في الحياة أمل ولا خرم إبرة، هنا أجد كـــل م أريد. تعلمت هنا أشياء كثيرة وعشت أشياء كثيرة لـــم أكـــن أعرف أن لها وجودًا، رسم شوقي قليلاً وكتب قلـــيلاً ولكنـــه يعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة في اليـــوم، حتـــى وإن أغلقت كل النوافذ، فنافذة غرفة نومه مضاءة أبدًا، وبعد كوب من الشاي تجده قادرًا على أن يسمع أي خرافات تحملها على قلبك، بعد ساعة يأتي واحد غيرك ويستغرقك الحـــديث فـــي أشياء أخرى، ثم تلتفت فلا تجده، عاد إلـــى فراشـــه ونـــام والنور مضاء.

هنا منذ الأبد، في هذه الشقة القريبة من ميدان الأوبرا، في آخر قصر النيل، هو والشقة يتحديان كل المتغيرات، الانفتاح والسمسرة، الحداثة والديكورات الجديدة، التيك أواي، كلهـــا أشياء لا تدخل من باب الشقة، وإن دخلت فلا بد ستخرج بعد

ساعة، هو يقاوم حتى الرمق الأخير دخول التليفزيون إلـــى شقته، أغلب الوقت تجد الشقة مزدحمة بالناس، ولكنها المكان الوحيد الذي تستطيع أن تكون فيه وحيدًا وحرًا، كيف استطاع أن يحتفظ بشيء أصيل وكريم في وسط كل ما يحدث حوله؟ لا أدري، ربما لأن قلبه على أطراف أصابعه، تشـــعر بـــه وأنت تسلم عليه، حيث يبقى يداك بين يديه، لفترة لا تطـــول ولا تقصر. وتتلقاك عيناه الطيبتان المندهشتان.

عنده هنا قابلت "كارين" وأحببتها، شيء كهذا لم يحدث لي من قبل، كل شيء في حياتي كان يسير بي إلى هذا الحـــب. بعد أيام قلت لها "رومانتيكي أنا أعلم.. ولكن أليس ما يحدث لنا غريبًا" لم تكن تتكلم كثيرًا، تصيغ جُملها فـــي إنجليزيـــة بسيطة.. تصل إلى روحي من أقرب الطرق، أمر بعيـــوني على جسدها كأنني ألمسها كأنني أطير.

في الأيام الأولى والحب ما زال مترددًا كطائر يتقدم ويفر هاربًا.. كان كل شيء يبدو مستحيلاً جاءت من بولندا تزور ثلاثة أو أربعة بلاد في المنطقة، تعد رســـالة فـــي الجامعـــة بعنوان "الفنان يعمل" تكتب وتصور الكتاب والفنـــانين وهـــم يعملون، تكبرني بست ســـنوات، تعـــرف أشـــياء كثيـــرة،

حضورها سحري آسر، وجودها معي بلا ثقل كأنها موجودة من القدم، أغرب شيء كان ذلك الشعاع البنفسجي في عينيها، لون لم أره من قبل، أظنه غير موجود.

اخترعت لها بيني وبين نفسي اسم "عيون البنفسج" أحببت الاسم وصرت أردده عليها، وأردده بيني وبين نفسي حتى أمتلئ به وأفيض. يغمرني صوت وضوء مستحيل يتكور جسدي دون ألم، ويغسلني حضورها برائحة العشب الأزرق.

يومها عاصف مليء بالنشاط، لم تكن تحب السهر كثيرًا. الساعة معها طيبة والوقت صادق، رتب لها شوقي زيارة إلى الفيوم لتزور فنانًا هناك، وزيارة أخرى إلى "أخميم" لتعيش أيامًا مع نساج قديم، لم أسافر معها، قالت إنها لن تفعل شيئًا لو كنت معها، أكتب لها كل ليلة وأكرر اسمها حتى تعود.

عندما قرأت لها قصيدة لي قالت: الحركة كل شيء، حتى الشعراء يجب أن يعبروا بالحركة في قصائدهم، لم أفهم بالضبط ماذا تعني، لكن عندما خلت حياتي منها ورجعت وحيدًا عاريًا كنت أبحث عن تلك الحركة التي تختبئ في قصائد الشعراء فلا أجدها. هي لم تأخذها معها، أكدت لي أنها موجودة. سأبقى العمر أبحث.

القبلة الأولى بيننا لحظة غريبة سجلتها في التاريخ والشعر والحلم والعمر، عند مدخل الشقة التي تسكن فيها مع زميلتها، نور بسيط ولا صوت، شعرت بلسانها يلامس قلبي. هل أغمضت عيني، أم أبقيتهما مفتوحتين، أكيد أنني رأيت الدنيا كلها، جبال عالية بعيدة وشمس حانية تغرب في آفاق لا أعرفها، قالت تدفعني بعيدًا عن جسدها الذي يذوب:

ـ غدًا.. غدًا.. يا حصاني الجميل.

* * * * *

(٥)

الفضيلة الوحيدة التي أظن أنني أمتلكها الآن في فضـــيلة الصبر، ليس ذلك الصبر الطيب الذي يتحدثون عنه، ويوصي به المؤمنون، صبري محسوب ومخطط وبـــارد، صـــبرت وخططت لحياتي في برود قاتل محترف. لكي أصـــبح فـــي النهاية وحيدًا. لا يقدر أحد أن يعتدي عليّ. أو يقـــتحم تلـــك الشرنقة المؤلمة التي نسجتها لنفسي.

لا أقصد بأحد شرًا. لكنني لا أبالي بأحـــد. هـــذا شـــري الصغير الذي يكبر أبدًا. تضيع خطوطي الخارجيـــة. أعـــود أستحضرها من جديد حتى لا يبتلعني الزحام الجهنمي الـــذي لا أفهمه.

يعود يستغرقني صراع حياتي الأبدي. أبقى عاريًـــا بـــلا تحقق ولا إنجاز، أحيانًا يضمني ركن، أشعر بإنسانيتي كبرق خاطف، وعندما ينطفئ أعود لا أبالي بشيء.

هذا يوم آخر، دار وانقلب، أجهدني البقاء خارج "البيـــت"، منذ سنوات، وشقتي في ميدان "لاظوغلي" صرت أطلق عليها "بيتي"، أمي أعطتني هذه الشقة بلا شـــروط ولا توابـــع ولا تعقيدات، قالت: هذه شقة خالك القديمة.. وأنـــت حـــر، أول

شيء حقيقي قديم له تاريخ داخل حياتي. أسرع إليها أحيانًا كثيرة وأغلق الباب والنوافذ ولا أصدق أنني تامر منير فكار.

الليلة وقد انفض مبكرًا سامر المقهى السخيف. أعود عبر شوارع جانبية معلومة، أكرر السير فيها كما يفعل الحمار. أمر على شعبي وجماهيري. ثلاثة.. أعرفهم، يعيشون دومًا لصق الجدران. حولهم قطع قماش خلقة، وأوراق، وزجاجات بلاستيك فارغة. زهور سوداء، أسحلهم ورائي بالحبال أم أفر منهم رعبًا... لا أدري.

أعبر قلاع وزارة الداخلية والمباحث والأمن حتى أجدني تحت تمثال لاظوغلي نفسه، هو لا يفشل أبدًا في أن يجعلني أبتسم وأنا أسمعه يصرخ بلهجته التركية في المارة والعابرين والعسكر الساهرين.

في مدخل العمارة وجدت الفرح منصوبًا.. "تهاني" ابنة الأستاذ عباس العازف السابق في فرقة أم كلثوم تتزوج اليوم. ولا نقود كافية لفرح في فندق. انتهت المناقشات والمساومات إلى فرح في البيت وزفة بالسيارات على كوبري أكتوبر. سمعت بعض المناقشات وحكى لي هو البعض الآخر، كان الرجل القديم، ذو التاريخ والأساطير، يذوب كل يوم في ظل

زوجة تزدد كل يوم شراسة يرعيان ابنتهما، "تهاني" العاطلة من كل المواهب.

المدخل الرخامي الضيق، مفروش بنشارة خشب خضراء، وبقايا المدعوين حول الأستاذ عباس الذي يبدو أنه أسرف في الشراب يرقص مذبوحًا من الألم. ويدفع ابنته في النهاية إلى داخل سيارة ملونة.

أحكمت إغلاق بيتي. مكتفيًا بما يتسرب لي من ضوضاء وضوء. ليس في الشقة منذ مدة حياة. صالة وغرفة واسعة كئيبة يغطيها التراب.

أتركه يتراكم كأنه يغطي وجهي ولا أريد أن أمسحه. مع الإرهاق والضيق المتصاعد والدموع المتحجرة المستحيلة أفتقد "كارين" جدًا. أفتقد ضوء عيونها. عيون البنفسج، يمتلئ جسدي بغيرة حمقاء، يصرخ لي وجهها الحبيب. بنداءات غير مفهومة، ثم يغيب عني في أحراش بعيدة. عام وبعده عام، أحسبها يومًا يوما. غيابها حاضر وقاس، ونفسي شتات.

ألقى بنفسي وحدي على السرير. أخاف أن يكشف أحد عورتي.. فراغي الذي أشعر به. أن يضطلع أحد على لا جدواي، أن أعلم ويعلم الناس أنني غير ضروري.

هناك دائمًا من يترصدني. يظهر لي فجأة أراه أمامي دون ضوء ولا مرآة.

يختفي فجأة، ويظهر فجأة.. ويتركني وحيدًا، أعاني استمرار الحياة.

* * * * *

(٦)

طالب في الجامعة ولست طالبًا.. أشرفهم بزيارتي يومًا وأنسى أمرهم لشهور. حتى الامتحانات هناك أعذار وشهادات مرضية. ليس ورائي أحد. من يعرفون أبي من الأساتذة القدامى اقتصرت علاقتنا على ابتسامات باهتة نتبادلها عن بعد وسط الزحام.

الجامعة التي أسمع عنها أو أقرأ عنها في الكتب مكان غير موجود الآن.

الآن هي عربة أتوبيس مزدحمة. أو حي عشوائي من الذي يتكلمون عنه في الجرائد، كنت في البداية أحضر محاضرات. وأبقى في المكتبة حتى الليل أقرأ وأراقب الدخول والخروج، وسط هذا الزحام تأكد لي أنني بلا جذور. معلق في الهواء. بلا أب أو أم أتحدث عنهما.. ليس لي طبقة ولا طموح هنا. دخلت مع الأخوة الإسلاميين وخرجت من نفس الباب الدوار الطارد الذي ينتهي حيث يبدأ. لي ديني الخاص وفهمي الذي لا يهتم به أحد. ربما أنا لا أعرف كيف أقوله. العدوان على حرية الآخر يزعجني ويدمرني بلا حدود. عدوان الضعفاء على بعض يثير الفزع.

تقريبًا لم أخرج من سنوات الجامعة الثلاثة ـ الأربع الآن ـ سوى بصديقي الشاعر حسين كاظم، يومها كان هناك تجمع أمام مبنى الإدارة لسبب سياسي لا أذكره. وجدت نفي خارج دائرة الإسلاميين التي تحتل قلب التجمع.

استندت إلى سيارة وأخذت أراقب الوجوه الغاضبة المهتاجة.

وجدته إلى جواري مستندًا إلى نفس السيارة يدخن سيجارته بنهم.

بدأ بيننا حديث ما زال ممتدًا. كنت أحسدهم على الماس والاهتمام وكان هو يسخر من الشعارات القادمة من المتاحف كما يقول. هو طالب في كلية الحقوق، ناصري، اشتراكي، كنت أغيظه وأقول: أليست شعاراتك وأفكارك هي الأخرى صارت إلى متاحف التاريخ؟

ربما لأن فقير جدًا، أو لأنه يعيش وسط أسرة مزدحمة بالإخوة والأخوات. في شقة ضيقة في إمبابة. ربما لأن أباه طاغية، ما زال يضربه حتى الآن. ربما لأنه لا يجد مكانًا يتنفس فيه أو يمارس عادته السرية. ربما لكل هذه الأسباب مجتمعة كنت أشعر عندما أراه غاضبًا على كل شيء، يتهم

الحكومة والبلد، ويسب الدين: أشعر أن كلامه دخان يتصاعد من قدر يغلي. كان مأزومًا حادًا، لا يرى لخيانة مخرجًا أو طريقًا.

لأنه صار بعد فترة صديقًا، فإنني لم أعد أشفق عليه أو أرثى لحاله، كنت أعيش معه دون أن أدري ضيق حياته المرعب. حاولت دون ادعاء أو أوهام أن أحمل عنه شيئًا.

يعود دائمًا للسياسة، ويتحدث بغضب عن الواقع والفقر. أرى من خلاله أشياء لم أكن أتصور أنها موجودة. واقعٌ غريبٌ وقاسٍ يخوض فيه ليل نهار. أحاديثه تدفعني إلى أن أشعر أنني في مكان غريب محاط فيه بناس لا أعرفهم يتدافعون في الجامعة والأتوبيس، والشوارع والأسواق.. ما الذي يجمع هذا الحشد حقيقة. هل نحن ـ جميعًا ـ مصريون.

أمارس معه رزالة أخرى فأقول مستفزًا: أنا لم أعد أعرف ماذا يعني أن أكون مصريًا؟ واندفع أكثر قائلاً: هل تستطيع أن تقدم لي تعريفًا للوطن؟.

أشعر به يتكسر تحت وقع كلامي المستفز، ويندفع يحدثني عن أشياء مكررة كثير ومختلطة: عن النيل والناس وقرى

الصعيد، وعن فؤاد حداد الذي يعشقه، وسيد درويش الـــذي يردد أغانيه.

وحدي بعد أن ينصرف حسين أجدني مشتاقًا إلى شـــارع يمتد وسط قرية مصرية قديمة. أو مقهى رطب فـــي حـــارة هادئة ظليلة.

* * * * *

(٧)

"الموزة" في المصطلح هي الفتاة التي تخلع ملابسها في أول لقاء، المهندس باهر زميل المقهى كان زعيمًا في قنص هذا النوع من البنات. يترك كل ما في يده ويتفرغ تمامًا للعملية حالمًا يبدي أحد الأصدقاء رغبة أو حتى يفكر في الموضوع.

هو وعربته الفوكلس الصغيرة جاهزان دائمًا لتنفيذ العملية وتجهيز ما تقتضيه من مستلزمات بحماس مذهل.

مشكلة حسين أنه دائمًا مفلس. أما أنا فأكتفي غالبًا بصفة مراقبة. أشارك فقط عند الضرورة. باهر لم يتأخر عن بث الحماس في المشروع، وانطلقت الفولكس بنا نحن الثلاثة صاعدة إلى كازينو المقطم القديم.

تمت العملية. انضمت إلينا "غادة" بعد لحظات. شرطها الوحيد كان أن نصحبها إلى تاجر البرشام والمزاج في بطن "قيتباي" قبل أن نذهب إلى أي مكان.

لم أكن أرحب بهذه اللقاءات كثيرًا في شقتي لأسبابي الخاصة وللجيران القدامى. أشعر الليلة بلا مبالاة، ورغبة بليدة في أن أشعر حولي ببعض الإثارة والعنف.

وكما توقعت تمامًا، ما إن سخن الشراب وارتفع الإيقـــاع، حتى وقع باهر مع حسين. كادت المسألة تقلب غم. أخـــذت حسين جانبًا وجلسنا في الصالة. أخذ يهـــذي فـــي غضـــب. وعلى صدره جبال من الحزن. يكتم بصعوبة بكـــاءً دينًـــا. ويتلظى بنار الإحباط والكبت والكرامة المهدرة.

تحامل حسين على نفسه وانصرف متعثـــرًا فـــي ســـاقيه الطويلتين، أخذ يؤكد لي أننا سنناقش "المسألة" ضروري غدًا في المقهى.

صرت وحدي في الشقة مع زوج من الحيوانات الغائبـــة عن الوعي، لها عشرات الأيدي والسيقان. تصاعدت غصـــة في حلقي.

أخذت شرابي وخرجت إلى "البلكونة" الرفيعة التي تطـــل على الميدان. قلاع الحكومـــة ومبانيهـــا مضـــاءة ضـــخمة، والميدان خال من الحركة، حسبت "لاظوغلي" غادر قاعدتـــه وذهب يقضي حاجته.

أغلقت الشيش عليهما، وما زال الفحيح والعواء يصـــلني حتى بعد أن استدرت ناحية بيوت وعمارات القاهرة القديمة،

تحول الغبار فوقها إلى ستائر من دخان يتكسر عليها ضــوء الليل الذاهب.

كبذرة مرة وسط ثمرة فاكهة. تعذبني فكرة الطهــارة. أن أغتسل وأغتسل من الخارج ومن الــداخل حتــى أذوب، أن أهجر. أن أسافر. أن أتوحد وأعتزل إلى الأبد.

أريد أن أهرب من مصير الأرواح الملعونة الساقطة إلــى الأبد إلى قاع الجحــيم. كــان "أبــي" وســط هــذه الأرواح يستصرخني، ولم أكن أستطيع له شيئًا.

في الداخل: جمع "باهر" الغنائم وانصرف، تاركًا في الشقة فراغًا كثيفًا وقذرًا.

بين الصالة والبلكونة أنسج من آخر خيوط الليل فجرًا من البنفسج بلله الندى.

يتبرعم له قلب أحمر وقانٍ. صبح كأنه قمر، سيطر علــى سماء وجودي الصامت.

لماذا تقهرني دائمًا جيوش الليل سريعًا هكذا.

* * * * *

(٨)

محافظ الإسكندرية، هكذا يطلق عليّ أصدقائي عندما أبهرهم بمعارفي بحواري الإسكندرية وشوارعها الجميلة، والمطاعم والحانات التي ما زالت تعمل في قلب أحيائها القديمة.

ونام نفسي نادر تضعني فيه هذه المدينة العبقرية، لذلك أخذت قطار الثامنة صباحًا وغادرت القاهرة التي تكاد أحشاؤها تنفجر. في القطار يهدأ الإرهاق والخوف والقلق قليلاً. أسلم نفسي لسرعة منتظمة ومكان بعيد عابر.

المدن المزدحمة التي أعبرها في لحظة، لا أكد أتبين أسماءها، تصيح بي أن الانتماء لأمر أو مكان أصبح ــ بالنسبة لي ــ شيئًا مستحيلاً.

الإسكندرية في حياتي كأنها "كارين" حبيبتي، عيون البنفسج، لها نفس اللون والضوء المستحيل، تنعش كياني ولا أشعر بثقل له.

أمي هجرت الجميع، وسكنت هناك مع زوجها "هاني قبطان" مليونير آخر الزمن. أزور الإسكندرية ولا أراها، حتى بعد أن مات الرجل من جرعة هيروين زائدة.

لي في الإسكندرية البحر، شواطئه الخالية البعيدة في الشتاء، ودائرة الماء الأسطورية في قلب المدينة، كأنها هبطت من القمر، أمتلكها وأهبها من أشاء.

لي في الإسكندرية ـ أيضًا ـ "نجية" مربيتي السوداء، حضنها وصدرها الباذخ المكان الوحيد الذي أدفن فيه وجهي وأغلق عيني، فكأنني لم أتعذب أبدًا ولم أولد بعد.

عندما تم تدمير أسرتنا من الداخل وتفرقت شظايا اختفت نجية في الأدغال. بعد سنوات وجدتها ولم أفقدها أبدًا.

وجدتها في بيت داخل حواري "بحري". بيت رفيع أبيض محشو بين عمارات صغيرة بذيئة. كأن البيت بني عليها باليد وهي بداخله، تسكن في غرفة مسروقة بين الطوابق. لها نافذة واحدة طويلة، يدخل منها ضوء بنفسجي رقيق تستقبل دومًا نسيم البحر.

هي لا تكاد تخرج، لكنها ليست وحيدة، بقايا الأهل والجيران يرعونها عن بعد، أصابعها جميلة ووجهها يزداد مع العمر بهاء ورضا، ما زالت مليئة باسمة، تتحرك في ليونة قط جميل من السرير إلى الكنبة تحت النافذة الواحدة الطويلة.

شيخة بلا زحمة مريدين، أنا مريدها الوحيد، أزورها كثيرًا حاملاً بعض "الهريسة" وزيوتًا عطرية للمفاصل.

رغم أن أمي تعيش في الإسكندرية إلا أنني لا أفكر فيها هنا. لا أزورها إلا للضرورة. قطع من حياتي معها تحرق جلدي أحيانًا، وجه أعرفه يضيع مني في الزحام. قصيدة قديمة حاولت أن أكتبها ــ وما زلت أحاول ــ عن جيوش من النمل الصغير تفترس فراشة وهي بين الحياة والموت، أفكر في القصيدة عندما أفكر في أمي.

وقصيدة أخرى لا أعرف كيف أكتبها عن "عروسة ملونة، مختنقة داخل علبة من البلاستيك، شفافة ضيقة، لا هي تستطيع أن تتحرك ولا يستطيع لمسها أحد. ما أبشع حياة النساء، وأنا أغادر نجية تسألني دومًا وهي تسوي شعري بأصابعها الجميلة: هل تسأل عن أمك؟

خيول الليل المتأخر والفجر تفرحني.

أعرفهم رغم ندرتهم الآن. أعرف الأصحاء منهم والمضي. وأعرف أصحابهم الطيبين والخبيثين والذين لم يعودوا يبالون بشيء. صادقتهم أنا و"كارين" ونحن ننزل في

اللوكاندة الرخيصة القديمة التي تطل على البحيرة الأسطورية في ميدان الرمل.

كان القمر شتويًا رائعًا يصارع سحبًا قوية ملونة. قفــزت من شرفة حجرتي إلى شرفتها. كانت سعيدة كطفل، وراقبنـــا الخيول والقمر، سألت هل يمكن أن ــ أخــذ هــذه البحيــرة معها. كم يصبح الإنسان خفيفاً عندما يلقي في الهواء بكل ما يحمل من حزن ورثاء لنفسه.

"في الصباح، كنا نسير على شاطئ البحر. نقبض بأيــدينا على حوار قديم:

- أتحبني..؟
- أحبك..

* * * * *

(٩)

أختي "لمياء" ضاعت مني هي الأخرى، سقطت في بالوعة: تزوجت "ابن الباجوري" التاجر الأشهر، كان أحدًا لا يتعلم، يكررون في حمق نفس الأخطاء. ولا يتعلمون من رأس الذئب الطائر. يخطف أبصارهم بريق الذهب فلا يرون شيئًا، ويرتبطون بأوغاد يمتلكهم المال ولا يملكونه.

لمياء رفيقة الصبا، تدربت فيها على التعامل مع الآخر، قريبة جدًا مني، مختلفة تمامًا عني. ليس في الجسد فقط ولكن في الروح وفي التعبير عن النفس، وفي الصلة بالعالم. حركتي في الدنيا إلى الخارج. أما هي فقد كانت تتحرك صوب عالم سري غامض في داخلها..

أنا دائمًا الطفل العليل صحيًا، أمرض مرة أو مرتين في الشهر.

أما هي فقد كانت طول عمرها: هشة، قابلة للكسر. مدمنة محترفة للبكاء، جميلة وضعيفة كريشة سقطت من طائر غريب.

حفل زفافها الأسطوري كان المرة الأخيرة التي اجتمعت فيها عائلتنا غير المقدسة في مكان واحد: أبي وأمي

والعروسة لمياء وأنا، الشرط الوحيد الذي أرسل إلى أبي مع دعوة الفرح، التي أرسلت باليد مع مخصوص إلـــى "بركـــة السبع، حيث يقيم كان: هـــو أن لا يصـــحب معـــه زوجتـــه الجاموسة الفلاحة كما تسميها أمي.

واحدة من الخدمات القاتلة التي قدمها "المجحـــوم" هـــاني قبطان زوج أمي البائد كانت إصراره وتدبيره لهذا الـــزواج المشئوم. لم تكن لمياء قد جاوزت الثانية والعشرين، ولم تكن قد أنهت دراستها في كلية التجارة بعد.

وافقت الغبية الحمقاء، طمعت وسالت إفرازاتها الأنثويـــة. سحبها ابن الباجوري إلى الجحيم الجديد المكيـــف الهـــواء. عندما وجدت وقتًا لكي تسألني رأيي قلت: "أنت حرة.. اسألي بريد الأهرام"!.

هل كنت أستطيع أن أقف في وجه حماس أمـــي المنـــدفع الذي انتقل إليها هي وقادها إلى هذا المصير. قادتهما النقـــود الضخمة، مغمضتين، فاقدتي القدرة حتـــى علـــى القلـــق أو التفكير أو التردد. كانت القوة أكبر مني ومن أي شيء. لـــم تكن تسحبهما وحدهما.. كانت تسحب البلد كله.

قلت لها أكثر من مرة وهي في غمـرة الاسـتعدادات أن الرجل غبي وحيوان. وأنه رغم النقود التي تسيل منه: بخيل، وأناني، وأنه لا يرى في الدنيا كلها شيئًا سوى نفسه، لكنها كانت تدور في فلك أمي وفلك هاني قبطان. بينما أدخل أنا أكثر وأكثر إلى شرنقتي الجميلة المؤلمة، التي أصبحت مادة لحملة سخرية يقودها ضدي زوج أمي الوقح، مؤكـدًا لهما وللجميع أنني فاقد للهمة وللطموح فاسد الـرأي وأن حكاية الشعر ستحولني إلى صعلوك لا قيمة له.

حفل زفاف أختي لمياء كان مؤلمًا جدًا بالنسبة لي.

بكيت وأنا أراها فريدة رقيقة وجملـة، يسـحبها زوجها وحرسه ورجاله المتشابهون لكي تذبح وتقطع وتعرض في "الفتارين". لا أحد يعترف بمسئوليته عما يحـدث، نضـحك، ونحتفل، ونزف.

العروس. لا أحد يرى الجريمة أو يوقف السكين. أكبر جرائمي ارتكبتها في هذه الليلة، لأني لم أتقدم فـوق رءوس الجميع وأنقذ أختي. ها أنا الآن غير قادر على إنقاذهـا.. أو حتى مواساتها. ضاعت لمياء ولا عزاء.

هي تسكن الآن شقة غبيـــة واســـعة مزدحمـــة بالأثـــاث والصالونات وترى النيل. تحيطها غابة من العمارات العالية، فيها كل الشقق خالية، فارغة من الحياة ومـــن النـــاس. لـــو صرخت أختي حتى الصباح لما أنقذها أحد. وحيدة مع الفأر الذي أنجبته وأحاطته هي ،أبـــوه بمئـــات اللعـــب البـــاردة المستوردة.

لم يمض على زواجها شهور حتى تحولت لمياء إلى جهاز لإرسال الاستغاثات في كل الاتجاهات: أمي، هـــاني قبطـــان قبل أن يموت في فضيحته المفاجئة المكتومة، وأنا والمعارف الكبار، وحتى المسئولين في الدولة.

كان يفعل بها كل شيء، من الضرب إلـــى الطـــرد فـــي منتصف الليل إلى اصطحاب النساء إلى سريرها، يقدر دائمًا أن يكتم صراخها وأنفاسها، ليعيدها محظية شرعية منتهكـــة. يواصل تعذيبها في فنادق فاخرة وقرى سياحية. لم يعد أحـــد يسمع استغاثاتها فسكتت. صارت أخبارها معتـــادة كجرائـــد الصباح.

الآن تأكل نفسها ووقتها وتـــدفن نفســـها فـــي النـــوادي والمحلات والسيارات المكيفة التي تنقلها إلى لا مكان. عندما

أمضي معها ساعتين وحدنا، ألاحظ كم أصبحت تكره جسدها الرقيق الذابل مذعورة تقذف بأشيائها القريبة ولا تكف عن التدخين.

يستفزها سكوني واستظرافي، والقصص التي استخرجها من طفولتنا، أو من الأماكن الغريبة التي أرتادها. تضيق بي وتحسدني. روحها خامدة. تزداد يومًا بعد يوم تشتتًا وغباء. أفشل في أن أثير حماسها لشيء ولا حتى لمشاكساتنا القديمة.. منذ سنوات لم أر لمياء تضحك.

قرب الظهر، وجدتها وحدها في الشقة الكبيرة. تشرب قهوة وتبكي. زوجها سافر في داهية، ونجحت هي هذه المرة في أن تبقى هي وابنها خارج الركب الذي يتحرك فيه دومًا. أخذت تحكي وتتكلم وتبكي كما تشاء. ثم خمدت مرهقة، عجوز، وبعيدة. لم أستطع أن أفعل لها شيئًا. تريد أن تسحبني كما يفعل الغريق إلى بحار من الفراغ والكآبة والصمت. تسحبني إلى بؤس قاتل. انتفضت منصرفًا وأنا أقول لها: لمياء.. الانتحار هو الحل الانتحار أو الطلاق المستحيل..

* * * * *

(١٠)

كهف الدكتور منير فكار الذي يخرج منه الناس بالمجوهرات والذهب والفضة أغلق علينا جميعًا. لم يعد يخرج أو يدخل منه أحد. انتهت من حياتنا القصص والأساطير.

يعيش أبي قرب. "بركة السبع" في بيت كبير مبني بالطوب الأحمر يطل على طريق نصف مرصوف، له حديقة خلفية، يزرع فيها خضارًا وموالح، إني جوار البيت جراجات للمقطورات الثلاث وحظيرة كبيرة للدواجن والماشية، البيت دائمًا تحت الإنشاء.

هو وزوجته "سكينة" مشغولان دومًا حتى ما بعد صلاة العشاء بالحسابات وإدارة شئون السيارات والحظيرة والأنفار.

مات أبي تقريبًا ثلاث مرات إثر أزمات قلبية حادة، أجرى بعدها عملية كبيرة في القلب. تداخلت أزمات القلب مع أزمات شركات الاستثمار، وضاعت فلوس الخليج، كان هو يزداد قوة. بعد الجراحة الأخيرة، وزواجه وانتقاله النهائي

إلى بركة السبع عاد بالنسبة لي شابًا نضرًا في مقتبل العمر.؛ إنه بعث رجلاً آخر غير الذي أعرفه.

في الحقيقة أنا لم أعرفه قط، كنت أسمع عنه فقط، من أمي ومن لمياء، ومن شوقي عامر وباقي الناس، أذكر طفولتي المبكرة معه، ولكنها صور عنيفة مختلطة، كبرت وسيرته في البيت موضوع خطر غامض، يثير دائمًا ردود فعل عنيفة ومختلطة، عندما دخل هاني قبطان حياتنا وتزوج أمي وغاب بها في بحاره القذرة، لم يعد أحد يذكر أبي، صار الموضوع محرمًا.. أخذت أبي إلى داخلي كي أنفرد به. لم أكن أريد أن أحكم عليه أو أحاكمه.. كنت أريد أن أجده. أن أتعرف عليه. أفتقده أحيانًا كثيرة. وأغضب منه وعليه ثم أعود فأراه وحيدًا مطرودًا، يسير في شارع موحش بلا نهاية.

كيف يمكن أن يرى الإنسان كل ما حدث.

استطعت أن أحصل على كتبه القديمة التي جمع فيها محاضراته عن الأدب العربي. جمعت من مجلات الخليج ومصر مقالاته، احتفظ بها وأعيد ترتيبها وقراءتها. عثرت أيضًا على قصائد قديمة له نشرها في شبابه. في قلب هذه

الأوراق كانت "رقصة الديك" قصته ومشروع المسرحية التي لم تكتمل، تحتل المركز، مشروع حياته. أعيد قراءته وأفك رموزه، وأعتقد أنه عمل عبقري لم يلتفت إليه أحد.

عندما أراه الآن وأحاول أن أذكر شيئًا عن كتاباته أو كتبه، أراه يبتسم ابتسامة شاحبة خجولة، ويشرد بعيدًا عني ويسرع كي يغير الموضوع. استقرت علاقتنا. ولم أعد أراه إلا عندما يستدعيني، يحرص في كل مرة نلتقي فيها على أن يعطيني كميات مختلفة، ومحترمة من النقود، يضعها في يدي أو جيبي صامتًا وكأنه يعتذر أو يسدد دينًا قديمًا.

عرفت أنه يحصل على نسخ من قصائدي القليلة التي نشرت ولكنه أبدًا لم يعلق عليها أو يذكرها. زوجته سكينة هي التي كانت تقول لي. تقول أنه يقرأها لها أحيانًا.. وهي لا تفهم منها أي شيء.

وهو بعيد عني أبني معه حوارات طويلة، وأتخيل حديثًا حميمًا طويلاً لا يحدث أبدًا. عندما نلتقي سرعان ما يتوتر الجو، غالبًا ما ينتهي بخلاف فأغادر غاضبًا، أو يختفي هو في مكان من البيت بعيدًا متشاغلاً بشيء عارض.

وجدته يتشاجر مــع واحـــد مـــن ســـائقي المقطـــورات، وصوتهما يملأ الدنيا، كان يشتمه ويتهمه بإهمال جسيم، وبأنه لا يقدر النعمة التي يعيش فيها وأنه يعض اليد التي تســـاعده وتفتح بيته. كان غاضبًا مهتاجًا كما لم أره من قبل، عنـــدما حاولت التدخل أسكتني وكأنه يهش كلبًا غريبًا.

غادرت البيت مسرعًا رغم محاولات ســـكينة اســـتبقائي للصباح تركت البيت ورائي يتصاعد حوله غبار كثيف تثيره الجرارات والمقطورات التي تفـــتح الطـــرق الضـــيقة بـــين الحقول.

في بركة السبع كان الوقت متأخرًا والنداءات تتصاعد في ميدان المحطة: مصر.. مصر... واحد مصر.

* * * * *

(١١)

ضوء عينيها البنفسجيتين تحت النجفة الخشبية القديمة في شقة شوقي عامر، يظل هو المدخل الملكـي لعـالمي الـذي أعيشه مع كارين، الكلمات التي كان يجب أن تقال لا تـزال حية، وما قلته يبدو دومًا ناقصًا وليس كما ينبغي.

في الصالة الواسعة، حول المنضـدة المربعـة الكبيـرة، راقبتها تتحدث مع شوقي عامر عن عملها، كانت تقول لـه: أن تحول المشاعر الغائمة في مسائل الفن إلى كلمات محددة واضحة صعب، ولكنه ممتع مثل التعبير عن الحب.

ابتسم الرجل العجوز الجميل موافقًا، وقام ليتركنا وحـدنا إلى المنضدة. سحر كارين يكمن في أن عندها دائمًـا شـيئًا حقيقيًا تقوله أو تفعله يجعلها دومًا مختلفة عمن حولها.

في الشقة ثلاثة شبان يحومون حول كارين ويحاولون شد انتباهها، خاصة ذلك المخرج المسرحي الـذي اسـمه عبـد اللطيف، والذي تقول هي عنه إنه يذكرها بفرشاة الأسـنان، أخذ يشرح لنا في وسط الصالة صعوبة تدريبات الممثل التي كان يدرسها في برلين: يسير على أربع، ثـم يرقـد علـى البلاط، ثم ينتفض فجأة قافزًا في الهواء حتى تحولت الصالة

إلى سيرك سيريالي، حول شوقي عامر الذي ظـل مشـغولاً بتخطيطات مبدئية للوحة يعمل فيها منذ سـنوات لا شـيء يفاجئه أو يزعجه. يرفع عينيه المندهشتين ثم يعود إلـى مـا كان فيه.

يذكر لي تفاصيل قديمة عن علاقته بأبي، فكأنني أراهمـا صديقين معًا. وأرى قاهرة الخمسـينيات والسـتينيات، هـو اعتقل لسنوات مع الشيوعيين، وخرج بلا تشوهات في فكره أو روحه، أظن أن علاقته الطبيعة بالفن والرسم هي ما زالت تحميه من كل شيء، لا أشعر أبدًا أنه عجوز، فقـط عـاش أكثر وعرف أكثر.

هو من القلائل الذين لا يكرهون أبي، يحمل له مودة تسعه مع مئات غيره من الذين تحولوا إلى حالات نفسية أو رمـم متنطعة ــ يقول أنه ذهب مرة وأمضى معه ليلة طيبـة فـي بركة السبع.

ليست كلماته الطيبة النادية عن أبي، ولا نعمـة البنفسـج التي هبطت عليَّ في شقته هما ما يربطاني به، أهم شيء هو سخريته الصامتة التي تكشف المتناقضات حولك فترى الدنيا وقد اعتراها نوع من العري المثير الأخاذ.

وجودها معي تشهد ما ينكشف ويتبدى في هذه الشـقة ــ قلب القاهرة ــ كان يجعل الأمـر مثيـرًا مهمـا ويسـتحق المتابعة.

هي ليس معي. كانت معي، ولم يعد للقاهرة قلب.

نزلنا متأخرين، بعد أن انتهى عرض عبد اللطيف العبثي. باركنا عم شوقي بلطف حتى الباب. ساحرًا كـان الطريـق معها إلى الكورنيش والكوبري في طريقنا إلى غرفتهـا فـي أول الزمالك. قالت لي أنها قد تركت نافذتها مضاءة.

* * * * *

(١٢)

الجحيم الجديد بدأ منذ رحلة مرسى مطروح المشئومة: أول دخول هاني قبطان الحقيقي إلى حياتنا لف حول أمي حباله، ودمر عائلتنا غير المقدسة من الداخل. قامته الطويلة المشدودة بلا جلال ولا مهابة، ألقت بظلها الكريه على كل لحظات حياتي.

كراهية الكون والوجود والذوق واللون والقمصان والحركات والإشارات والمعاني، والكلمات وخاصة الكلمات احتفظت بها كلها له. وجوده كان يجعل جراحي تنزف ورأسي ينفجر.

خطواته الحادة، صوت مفتاحه في باب الشقة كانا كافيين لكي يجعلا مني حيوانًا جريحًا مستفزًا تحت التهديد.

كرهت أمي لأنها أصبحت من أشيائه، أرى وأشم ريحه في جميع ما تفعل أو تقول. ولا حيلة لي ولا مهرب، ليست له ملابس جديدة وخلعتني وخلعت كل شيء.

وأنا أعاني من حمى طويلة، وكانا لم يتزوجا بعد، أفتح عيني فأراه، واقفًا على رأسي طويلاً حتى السقف مصنوعًا

من رخام بارد يقع ظله على صدري ويكتم أنفاسي. لم يفارقني هذا الشعور أبدًا.

استولى على كل المواقع وأنا محاصر أتراجع دائمًا إلى شرنقتي وأترك له أمي وأختي والمكان الذي أعيش فيه، انتقلنا من شقتنا القديمة في مدينة نصر. تم ترحيلنا إلى بيته في الإسكندرية، تخلصت أمي من كل نباتات الظل التي كانت تعتني بها، وأشياء أخرى كثيرة كانت تحمل بصمات عين داستها أقدام حادة مزقتها سكاكين.

في البيت المريب الذي لم أجد أبدًا فيه مكانًا لروحي، كانت الليالي تبدأ متأخرة. ومع تقدم الليل كان هاني قبطان يتحول فعلاً إلى رئيس عصابة، مخيف وجبان وقذر، يجمع كل خصائص مسلسلات التليفزيون المتخلفة في ليلة واحدة، يبعثر حوله أشلاء قذرة، تستيقظ في وسطها أمي وتعيش لكي تعد له يومًا جديدًا وليلة جديدة. كان البيت يبقى مفتوحًا طوال النهار، يدخل ويخرج خدم وصبيان، ومهربون وصناديق مغلقة، وهاني نائم أو غير موجود ولكنه يدير كل شيء.

تعددت حالات أمي، وارتدت عشرات الوجوه. لكنها كانت قد تخلصت إلى الأبد من الوجه الوحيد الذي أحبه وأعرفه، ومحاولاتها للتقرب مني كانت تجعلني أكرهها أكثر.

انشغلت دومًا بتدبير مؤامرات فاشلة لفضحه وضبطه متلبسًا عاريًا مفضوحًا، من دون ذلك القناع الذي يداري به كل حياته.

كل الوعود لم تكن تنفذ إلا برضا وموافقة منه. تأخذ هي أمامي موقف الزوجة التي لا تكسر لزوجها كلمة. الثانوية العامة، مرضي المتكرر، التحاليل وزيارات الأطباء، عشرات الحيل والأكاذيب كانت الخيوط التي أخذت أنسج منها مؤامراتي للحصول على شقة لاظوغلي التي أخذتها أمي من خالي الذي مات في كندا.

لم يوافق هو أبدًا وكان إعلانًا للقطيعة وإخلاء المسئولية تحميلها هي للمرة الأولى وحدها كل العواقب.

موافقة مع اللعنات خرجت بعدها من جنته وجحيمه، ولم أنظر أبدًا خلفي، اعتبرته ميلادًا جديدًا وحاولت حفره وتسجيله على كل المقاعد والمناضد والجدران.

لم أترك كراهيته تذوب في حياتي، هي كافية لكي تفسد بحار العالم. أبقيتها في صناديق مغلقة. لم أسحبها ورائي. المهم أن أعرف كيف أوقف كل شعور بالرثاء على نفسي، ألا أقابل الحياة بشعور امرأة مغتصبة.

ولكن في القاهرة كان جحيم آخر جديد.



(١٣)

مغامرة وخيمة العواقب كانت زيارتي للقرية التي ولد بها أبي كفر شوق في المنيا. "رقصة الديك، ومخطوط المسرحية التي لم يكملها أبي هي التي حركت كل هذه الكوارث التي تساقطت على رأسي.

ملكتني صور ذلك الكهف الذي يفتحه دم ديك بلدي يذبح أمامه، والهياكل العظيمة لطامعين الذين دخلوا لكي يحصلوا على الذهب والمجوهرات فماتوا ومات غيرهم مئات. والمغربي البدوي الرحال يدور في القرى مطلقًا بخورًا ومغنيًا أغاني لا يفهمها أحد. ومحطة كفر شوق القديمة ورجب بائع "الدوم" الذي أشعل الحريق وأطلق الجنون وطاردته القرية.. حاولت أن أدخل برأسي إلى عالم هذه القصة وليتني ما فعلت.

اتفقت أنا وصديقي حسين كاظم أن نسافر وراء هذا الحلم الملعون. كان سوء اختيار مني للرفيق وللطريق معًا. كأنني حدقت في بئر فارغة بلا قرار.

كانت مواجهتي الحقيقة الأولى لفكرة أن أبحث لي عن وطن. مسقط رأسي في الخليج. ولكن هنا الوطن. أليس

كذلك؟ استحوذت علي محاولة فهم هذه البديهية، كما استحوذت علي صور مبعثرة من قصة أبي وحياته.

أنكرني هناك المكان والناس. لم أتعرف على أحد ولم يعرفني أحد. كنت أخوض في زحام من الفقر والتخلف. يصيبني مرة بالقرف ومرة بالفزع، يتركني مشدوهًا أقرب إلى الأبله، وقد أغلق خلفي تمامًا طريق الفرار. بعضهم يقول "آه.. ابن الدكتور منير، الله يسامحه بقه، وبعضهم لا يقف حتى ليدلني على الطريق، لا أحمل معي سوى نظرات الاستنكار والريبة.

طابور الناس والميكروباصات الممتد من المركز إلى القرية، خليط غريب من الصعايدة ولابسي الجينز والملتحين ولابسي الملابس الباكستانية، وجحافل من التلاميذ الصغار والفتيات المحجبات. الجميع منهمكون وسط الغبار لكي يلحقوا بشيء لا أعرفه.

لم يكن حسين من الناحية المادية أحسن حالاً من هؤلاء. بل لقد بدا وكأن كثيرًا منهم يخافون أن يظهر عليهم ما يملكون من نقود. مع ذلك كان حسين يعاملهم بتعال قاهري بغيض. كأنه سائح خايب رذيل. يكرر الإشارة إلى صور

ومناظر موجعة أليمة، وكأنه عثر على ضالته وما يبتغيه. يستعرض عليهم ليس تفوقه العقلي فقط بل والطبقي أيضًا.. يريد أن يقول دومًا: أنا أحسن منكم.

كان هذا أكثر مما أحتمل. فوق ارتباكي وضياعي الذي أحسست به وأنا أتلمس في ظلام تام أطلال أحلام أبي، ومهابط الوحي والإلهام الذي كان ينزل عليه.

لم أجد رسمًا واحدًا من الرسوم التي اشتعلت في خيالي المحموم. حتى الشجرة القديمة التي حكى عنها على رصيف المحطة. لم أجد لا شجرة.. ولا رصيفًا أطبقت على المحطة من الجانبين ظهور بيوت بنيت على عجل بالطوب الأحمر.

ليس في القرية كلها مكان ولا إنسان يؤوينا لليلة واحدة. نوافذ وأبواب مغلقة. وعواقب وخيمة لو واصلت الطرق والسؤال، لا وقت ولا رغبة عند أحد في أن يتكلم أو يتذكر.

يضيع مني الشيء مرتين. الحياة ــ وحتى الشعر ــ قبض الريح. خارج أنا وحسين من القرية ليلاً عبر مستنقع مظلم يقود إلى الطريق السريع.

في غرفة عالية السقف، عارية تقريبًا من الأثاث، أمضينا ليلة ثقيلة على النفس.

نام حسين لكن ــ أنا ــ لم أنم.

* * * * *

(١٤)

عطشان دومًا ــ لحبها الصافي ــ لا أريد أن أفارقهــا أو أتركها تنشغل عني بشيء آخر. أجد حلاً لوجودي، أشــرب ضوء عيونها البنفسجي الذي يبدل كل مــا حــولي ويطلــق روحي. أتعلم منها وأسمع عن شعراء ورسامين وموســيقيين لم أسمع بهم. وإن سمعت فلم أكن أعرف ما يفعلون. وهــي تحبني أدخلت هؤلاء إلى حياتي. كأنني أعــرفهم أو كــأنني واحد منه.

البيت الخشبي القديم المحشور وسط العمــارات الجديــدة على الكورنيش.. تقول إنه يذكرها بديكور مســرحية بيــت الأشباح، أوافق على كلامها فتقول: هل تعرف كل شيء.. يا حصاني الجميل؟

مسافات طويلة بيننا.. واقع ولغة ودين. كاثوليكيــة وأمــا مسلم. أحبت المصحف المرتل. سمعت ساعات طويلة معي، سمعت أم كلثوم، وسمعت موسيقى "باخ" معها حتى أدمنتهــا. غالبًا ما كانت تكتب كل ليلة خطابًا لوالدتها بالبولندية، أسمع منها موسيقى غريبة تحرك الروح.

لم يكن هناك حلم ولا واقع.. لا شـــيء علـــى الإطـــلاق مستحيل.

كنت لا أرى ما يمنع من أن يتم زواجنا فورًا، نتزوج في الشهر العقاري وننتقل معًا إلى شقة لاظوغلي. النقود التـــي أحتاجها لن تزيد. هذان النذلان. أبي وأمي يملكـــان أطنانـــا منها، ثم إن لكارين طريقة غريبة في التعامل مـــع النقـــود، تصرف، ونقودها لا تنقص.

يمتعها اندفاعي هذا للزواج، تتأمله وتثيره وتبقي القـــرار معلقًا كأنها تملك كل شيء في يديها.

في الصيف طلبت في نهار حار أن نزور المقـــابر التـــي تمر بها كثيرًا وهي في السيارة. لم تفلح الزهور والخـــوص المتناثر في أن تقاوم في روحي ذلك الفناء الترابي المخيـــف الذي أخذنا نخوض فيه، والسيدات البدينات اللاتـــي يحملـــن ألوانًا من الطعام ويتحرك من به فوق الموت الأصفر. يدفعن الغليان إلى مداه، كانت تحتمل الحرارة والتـــراب والمـــوت والأجرد في صلابة مثيرة للدهشة، محدقة في صمت، تكـــاد تكتم أنفاسها.

حدقت أنا الآخر في الأشباح التي تراقصت على ضـــوء الشمعة التي أشعلتها هي ليلاً، وأخذت تحكي عـــن قصـــص "المسلماني" الذي كانوا يحكـــون لهـــا عنـــه وهـــي طفلـــة: "المسلماني" الذي يقفز من نوافذ البيوت ليخطف الأطفال، أو يذبحهم. سكنت المربعات والمستطيلات التـــي نمـــت مـــن الصمت في الليل أشباح غريبة بيننا.

عندما نامت وسكنت إلى صدري كنت أحـــس أن أمـــامي طرقًا وأسفارًا تحتملني إلى آفاق غريبة وحدي.

* * * * *

(١٥)

الخدم الذين عرفتهم في الخليج كانوا أغرابًا من سيريلانكا أو الفلبين، ألوان مختلفة، كأنهم بشر ركبوا من مواد أخرى، أما "حلمي" فقد كان ابن الخادم الذي اخترعتـــه أمـــي لكـــي ينظف الشقة مرتين في الأسبوع في عهود ما قبل دادة نجيـــة وقبل جحيم هاني قبطان..

"حلمي" مرجعي وملاذي في هذا العـــالم الجديـــد الـــذي قذفوني غليه.

أعرف أن سن الثامنة والتاسعة سن الاكتشاف والدهشـــة، لكنني كنت أكتشف الأشياء مرتين، وأفقدها مرتين، عمليـــات تحويل عملات غريبة تدور دائمًا في ذهني، حضور وغياب. لا أعرف ما هو المكان الحقيقي. ولا ما هو الشيء الذي لن أراه بعد ذلك أبدًا.

علاقتي مع "حلمي" كانت أول شيء حقيقي أصنعه بنفسي وبشروطي، الاثنين.. والخميس عندما يأتي مع أبيه لتنظيـــف الشقة كانا اليومين اللذين أعيش من أجلهما طوال الأســـبوع. أعد البرامج وأرتب المفاجآت، وغالبًا ما أتمارض حتـــى لا أذهب إلى المدرسة وأمضي النهار كله معه.

خليط فريد من الحب والامتلاك والخوف والرغبة في المجاهل والمعارف الواسعة والآفاق الجديدة التي تفتحها علاقتي به.

هو في نفس سني أو أصغر قليلاً.. وجوده في الدنيا ومجيئه مع أبيه كان الشيء الوحيد الذي يجعلني أرى الأشياء تترابط وتصبح حقيقية. كنت أجعله يفعل أي شيء ويتحمل أي شيء. أبقيه دائمًا مندهشاً من أشيائي وألاعيبي وقصصي الحقيقية والمخترعة التي أنسجها له على هواي.

شيء وحيد كان يملكه ولا أملكه أنا. كان موجودًا طبيعيًا ضروريًا، له مبرر، بينما أنا زجاجي. أنا بكل ما أملكه في غرفتي المزدحمة باللعب والأثاث المختبئ في عمق شقة مدينة نصر المزدحمة بنباتات الظل، كنت زائدًا على الحاجة، لست ضروريًا ولا مبرر لي، الشيء الوحيد الذي يشغل ذهني غير "حلمي" كان التصوير الكاميرات الغالية الجديدة التي أطلبها من أمي بلا حدود.

إدمان مبكر، سلوك استحوذ على روحي ومتعة سرية خاصة: أن ألتقط صورًا ثابتة من وراء عدسة، أمسك باللحظة الوهمية الخاطفة المدهشة. المسألة أنني لم أكن أحب

أن يرى أحد صوري، لا أمي ولا لمياء، ولا أحد من الزوار القلائل، لماذا ــ وأنا لا أحبهم ــ أجعلهــم يقتحمــون علــي لحظاتي الخاصة التي رأيتها وحدي؟

"حلمي" ــ فقط ــ كنت أتركه يقلب في كل الصور ويفعل بها ما يشاء ويسألني عنها.. أغلب الصور خالية من الوجوه أو الأشخاص، كلها لأوراق النباتات أو حديــد الشــباك، أو أرجل المقاعد، أو أدوات المائدة، دهشته بالصور، وتأمله لها سعادة هائلة لي. أحياناً يخترع لها أسماء ويرى فيها كائنــات أو يرتبها ليصنع منها حكاية.

لم يكن يذهب إلى المدرسة لأنه مصاب بالصرع، تصيبه نوبات متباعدة ويقتضي مصاريف كثيرة يتحملها أبــوه مــن أجل أمل غامض في الشفاء. للرجل من أجل ذلك عدد هائل من الأعمال وعالم مشغول واسع من العلاقات والبيوت التي يذهب إليها، ومعه دائمًا "حلمي" هو عند بعض الناس أعجوبة أو طفل معجزة. له وجه هادئ جميل، عينان تشــعان ذكــاء صامتًا وحزنًا بعيدًا، أهله رغم الفقر يعتنون به جدًا، ويبقونه دائمًا نظيفًا، النوبات لبست شيئًا خطيرًا. يضغط بقوة علــى الحائط خلفه، ويفرك يديه فــي بعضــهما الــبعض بشــدة،

ويتصاعد ألم يغير ملامح الوجه الجميل ثم يفقد وعيه ويسقط على الأرض.... عودته من النوبة كانت شيئًا جميلاً.. كأنه الصباح يعود من جديد.

حياة حلمي حية واسعة مليئة، كأنه يعيش في قلب خلية نحل أو في مدينة بناها النمل تحت الأرض. بادلنا أنا وهو حياته بحياتي، أحب حياته جدًا، ويومه المزدحم، أحب ــ أيضًا ــ أن يبقى معي طول الوقت يحكي ويتفرج على الصور. عندما أكون أنا مريضًا ويبقى هو معي في الغرفة كنت أشعر بدفء وضوء غريبين يملآن المكان، وعندما يذهب كانت الغرفة تعود باردة كأنها قبر من رخام.

لم أعرف أبدًا من دبر المؤامرة الكبرى ضدي، ولا من بدأها، الذي أعرفه أنني قاومت وأضربت واعتصمت وامتنعت عن الطعام، لكي لا تفصل أمي بيننا وتمنع حلمي ووالده من المجيء.

ذبحت أمي، في قسوة باردة وبلا مبرر، أيامي. لم أمسك بعدها كاميرا ووضعت الصور في صندوق أسحبه دائمًا ورائي. حرمتني أمي من العالم الواحد الوحيد الذي أحببته.

* * * * *

(١٦)

نظهر متلازمين أنا وحسين كاظم في أغلب الندوات الأدبية، أشعر أن وجودنا معًا يثير أسئلة بلا إجابات، فلا أحد يعرفنا، ولا أحد يعرف إلى من ننتمي ولا مع أي الشيوخ نعمل. نشرنا قصائد قليلة جدًا ولسنا بأي مقياس كائنات يلتفت لها. نتخذ لأنفسنا موقعًا استراتيجيًا نراقب منه المقدمة والمؤخرة ونختلط بالجمهور العادي الذي جاء بالمصادفة أو لتمضية الوقت. مع هؤلاء يكون الجو أفضل من الاختلاط بالمجموعة المألوفة دائمة الحضور التي تتحرك حول المنصة والمقاعد الأمامية لقضاء مصالح صغيرة أو تصفية حسابات وهمية. يقنعني أحدهم أو يفاجئني بتفكير خاص أو اهتمام صادق أو اقتناع بما يقوله أو يتحدث عنه. نتبادل أحاديث جانبية متقطعة أو نقول نكتًا قديمة لنسأل أنفسنا بعد فترة: "هيَّ إيه الحكاية!"

الليالي تدبر نفسها.. في كل مساء يولد شيطان جديد يتحكم في الليل ويقوده، شياطين صغيرة تنتجها حالة الضياع الذي ألقاه في كل طرقات حياتي. تمر أيام طويلة وليال دون أن

أشعر بوميض الوجود الحقيقي أو تعتري جسدي رجفة الحياة.

بعد أن تنتهي الندوة يخرج الجمهور العادي متثاقلاً يحمله خيبة الأمل، بينما تنشط جماعات الصفوف الأولى لمواصلة المبارزات الخشبية في أي مكان.

يدفعني لكي أظل أتردد على هذه الأماكن جوع حقيقي لأن أعثر على شيء. قصيدة ربما، أو مفتاح الحياة.. وغالبًا ما تنتهي بي الليالي وحيدًا غريبًا على طاولة ممدودة مزدحمة بكلمات كاذبة، وأحلام داستها أقدام.

اندفعت في البداية أحضر كل الندوات التي أسمع عنها هنا وهناك كأنني أبحث عن أبي أو بعض منه، عرفني واحد أو اثنان من كبار السن ليسألا عنه بسؤال عابر وانتهى الأمر، قابلت بعض تلاميذه الذين لا يذكرون له شيئًا، الرأي السائد أن الذين سافروا إلى الخليج خونة لا يحق لهم أن يعودوا إلى الساحة. فرصة للتصنيف والحكم والإدانة وممارسة كراهية مكتومة ورغبة دائمة في ممارسة الجرح والتشريح.

الأستاذ الكبير اكتفى بنا نحن الاثنين، حسين وأنا، بعد أن فشل في أن يحصل في ليلته على مستمعين أكثر أهمية منا.

ذهبنا معه ونحن نحسب حساب الكوارث التي يجلبها إسرافه في الشراب، والصداع الأبدي الذي يصيبنا إذا بدأ الحديث عن نضاله السياسي وعن الثمن الذي دفعه من أجل "القضية".

على مائدة منعزلة في محمل تسكنه رائحة قديمة استعاد الرجل شبابه وأخذ يصب في جوفه متسارعًا شرابه القوي، اختار مدخلاً جديدًا وأخذ يقول إنه لا يفهم سر انفصال المثقفين، وعزلتهم عما يتحقق.. عن الإنجاز الذي يتم.. أخذ يكرر أن كل شيء نسبي.. الديمقراطية نسبية والعدل نسبي. وأن المشاركة في الفعل هي التي تعطي حق النقد أو الاعتراض.

كنا قد سمعنا أنه مرشح لرئاسة تحرير مجلة جديدة. رجع بكرسيه إلى الخلف وقال: أنت مثلاً موهوب.. لماذا تكتفي بالفرجة.. لماذا لا تضع نفسك في قلب عمل ثقافي؟ لماذا لا تشارك؟ أم أنك تريد الهرب مثل أبيك!

يبدو أن الشراب القوي الرخيص قد ضخم كلمة الهرب في رأسي.. رأيتها معنى بشعًا كريهًا. لم أرغب في أن أراها تلتصق بأبي. حاول الرجل قدر ما استطاع، إنه هو الهارب

ذلك الفأر اللامع، هارب إلى دهاليز السلطة ومكاتب المسئولين، هارب إلى محفظته التفاهة وملابسه السابقة التجهيز.

قلت له في كلام أثقله الغضب والشراب إنه هو الهارب في كل ما يفعل أو يكتب أو يقول. وإنه لا يرى شيئًا ولا يدافع عن شيء، وإن كان يتصور أن ما يفعله أو يكتبه هو مشاركة في خدمة ثقافية تقدم للناس فهو واهم؛ لأن ما يفعله حقيقة هو استرزاق بذي من مال ناس في حاجة إلى رغيف ومدرسة نظيفة، وأن الديمقراطية النسبية التي يتحدث عنها ليست سوى ستار يختفي وراءه النهابون أمثاله.

في لحظة اكتشفت أن الأستاذ الكبير جبان، وأن غضبي الذي انفجر أرعبه، وأنه مستعد للموافقة معي إلى حد البكاء، لم يبق على المائدة سوى الفتات ككل ليلة، واستطرد الأستاذ في تراجعه يستعمل كل المصطلحات القتالية من الساحة حتى المواجهة والصمود.

كوميديا هذه الألفاظ كانت تثير ضحكي أنا وحسين. أراهم جميعًا جيوشًا من النمل اجتمعوا حول جلد ثعبان فارغ، الثعبان في الحقيقة خلع جلده وتركه، وراح هو إلى مكان

آخر. هم مشغولون بالجلد الفارغ الملون. المصيبة الماثلة فوق رأسي دومًا أن كلاً منهم يعيش حياته وحده متصورًا أنه كون وحده أو جزيرة. عندما يقتنص "لقمة صغيرة" يرفع رايات النصر ويتوقع أن يشارك كل الناس في الاحتفال.

كان على حسين أن يسرع لكي يندس في الميكروباص الذاهب إلى إمبابة، حاسبًا حساب رائحة الخمر في فمه. حاسبًا حساب الدخول إلى عرين أبيه الضيق. بعد أن ضمن في جيبه ثمن السجائر وساعات الصباح.

بقيت وحدي في الشوارع مع جلد الثعبان الفارغ. مررت على الشحاذين الثلاثة المتكومين مع نفاياتهم في شوارع باب اللوق الجانبية. أطبق عليهم الليل، أما بقية الناس فقد دخلوا إلى البيوت، وأغلقوا أبواب الشقق والنوافذ، ويبقى الحال ــ دومًا ــ على ما هو عليه.

* * * * *

(١٧)

اليوم الذي عقدنا فيه عقد الزواج في الشهر العقاري حار جدًا. كارين ترتدي "تاييرًا" إنجليزيًا فاتحًا وبسيطًا. رغم الزحام وضيق الغرفة وسخافة الإجراءات، فقد ساعدنا المحامي الماهر الذي دلنا عليه شوقي عامر.

كانت كارين قد سافرت إلى أمها لتأخذ موافقتها وعادت بعد أسبوعين. احتفلت بيني وبين نفسي كأنني ملكت نجوم السماء، أنجزت هي في سرعة وبساطة، وبتكاليف قليلة، ترتيب شقة لاظوغلي وإعدادها للحياة، لم تمض أيام حتى صارت مكانًا مختلفًا نظيفًا خارج فوضى العمارة والمكان.

لم تكن سهرة الليلة ظريفة، فقد اجتمع ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء حول زجاجات خمرة كثيرة وطعام غريب جلبوه معهم. أغلب أحاديثهم تدور باللغة العربية وأكثر الإشارات والنكت جنسية ولا تترجم. بعد ساعة اشتكت لي كارين من أن الدخان كثير، وأن أصواتهم العالية تشبه السعال، وآثرت أن تأخذ صداعها الخفيف إلى غرفتها وتحاول أن تنام.

غيرت هي تفاصيل العمل في رسالتها "الفنان يعمل" واكتفت بالفنانين والكتاب المصريين حتى تبقى معي في

مصر كل الوقت المتاح. ترتيب الحيـاة وتخطيطهـا الـذي ناقشناه مئات المرات، كان يقتضي أن أنهي الدراسـة فـي الجامعة، وأنتظم في العمل والكتابة يوميًا فـي اسـتمرارية مقدسة، تلم الوقت المشتت والأيام الضائعة، محاولة للتشريع في أرض وروح تلوثت بداء الفوضى والضياع.

كارين قادرة على خلق إيقاعها الخـاص ونظـام يومهـا المشحون دون تزمت ولا جهامـة، ولكـن فـي صـرامة متحضرة.

حبها لي نهر تحت الصخر لا هـو مبـذول مبتـذل ولا مصنوع، حاضر يحيط بي من أول سـاعات الإفطـار فـي الصباح حتى هبوط الليل.

مرت شهور وأنا أصارع بقعًا سوداء تولد بين اللحظات، فتجعل الوقت حائلاً لا طعـم لـه، يضـيع فـي التحـديق والاجترار.

لم تكن تتحمس لفعل الحب لتمضـية الوقـت، لا يكـون مصدرًا للسعادة إلا إذا تم في لقاء جسدي ومزاجي متكامـل، تتصاعد في اتزان وتصل قمتها في انتشاء كامل مريح. أمـا أنا فقد كان الجنس معها يبقيني غالبًا أسير مشـاعر حـائرة

مرتبكة، نهر حبها يتجدد بفعل الحب.. أرى ذلك واضحًا في وجهها في الصباح. أما أنا فقد كانت شرنقتي القديمة تطبق دومًا على أراض جديدة في روحي وحياتي، لم أعرف كيف أعيشه حرًا منعشًا.

الأصدقاء والأشياء الطارئة كانت تخترق اليوم وتتركني أدور حول خيالات متعلقة بالكتابة أو الشعر دون إنجاز يذكر أو تقدم. بينما أراها إلى جواري ينتظم عملها يوم بعد يوم، وتتوالد الأفكار في صحة ونماء. تراقبني دون حكم أو إدانة، يولد عندها بالنسبة لي نوع من الإشفاق والاستغراب الحقيقي. أبحر دون أن أدري في بحار وحدتي وضياعي المطلق.

لم أكن رأيت أمي منذ فترة طويلة، من أيام أزمة وفاة هاني قبطان، وما صاحبها من فضيحة حاولت أمي مع الجميع كتمانها ومنع السبب الحقيقي للوفاة من أن يتسرب إلى الصحف التي تتشمم أخبار الهيروين ومتعاطيه من البسطاء والمشاهير.

بعد الزواج طلبت أن تراني وتتعرف على كارين أكثر من مرة. لكنني كنت أدفع المواجهة بعيدًا عني كما أفعل في

أشياء كثيرة. أسمع أن حالتها تزداد سوءًا مع الحبوب المهدئة والشراب.

قمنا بالزيارة بعد أن ألحت كارين وقالت إنها ضـــرورية، يوم تعس مر المذاق. البيت الذي تقيم فيه تحول بسرعة إلى فيللا مهجورة وسط فيللات أخرى مزدهرة منتعشة في منطقة رشدي، هذا هو المكان الذي تمنيت دائمًا أن أراه كوم تراب أو رمادًا. في الصباح المتأخر كانت السيدة العجــوز تبــذل مجهودًا كبيرًا لكي تبــدو متماســكة مفيقــة. دخلنــا إليهــا متوجسين.

ارتدت بعض ثيابها الكلاسيكية، وشدت نفسها على مقعــد وحيد يحيطه فراغ بعد أن صففت شعرها ووضعت ماكياجًــا ثقيلاً، جمعت كفيها في تتوتر، وكانت يداها عجوزتين.

بذلت مجهودًا كبيرًا لكي أتم عملية التعرف في سلاســة، أخذت هي تتكلم في إنجليزية، متكلفة وتحكي لكارين عني.. وعن حياتي.

يستطيع الإنسان أن يبرر لنفسه كل شيء.

هو قادر على أن يرى فقط ما يحب أن يراه.

أعطت كارين في إصرار قطعتين من مجوهراتها القديمة، وراقبتها كما أراقب ممثلاً متوسطًا يؤدي دورًا لا يصلح له.

في الليل ذهبت أنا وكارين إلى مطعم "سانت باربرا".. الضوء أصفر شاحب وعلى صدري كآبة لا حل لها.

طلبت كارين النبيذ المصري الذي تحبه. لم أعرف له طعمًا، أبعدني النبيذ عنها وجعلني أسقط وراء الحقيقة في وحدة مرة.

* * * * *

(١٨)

تركت كارين وحدها في الشقة لأكثر من أسبوع، أجمع في "بركة السبع" شتات نفسي بعد الوفاة المفاجئة للدكتور منير فكار. انتزعتني كلمة "تعيش أنت" من فوضى القاهرة وارتباكها وسحبتني لكي تلقي بي في مستنقع "بركة السبع". في الفراغ الذي خلفه رحيل الرجل الكبير. لم أدرك لحظاته الأخيرة. كشفت الملاءة البيضاء، حدقت للحظة في الوجه الصارم البعيد. انطبعت خطوطه الخارجية الحادة بعد أن أعدت الغطاء. لن يقول لي أبدًا شيئًا بعد الآن.

للحزن طعم جديد طازج كأنه مذاق الدم. ولم يكن حولي على الإطلاق من يشاركني.

ضوضاء العزاء وكل الترتيبات تولتها زوجته سكينة وأهلها الذين ملأوا المكان بملابسهم البيضاء النظيفة. كتيبة تستولي على قلعة سقطت. لم يكن لي في كل ما يفعلون رأي ولا شأن.

لمياء حضرت مع بعض زبانية زوجها وانصرفت بعد ساعات. من أمي لم أسمع أي خبر. في ليالي العزاء كان الحضور من أهل الناحية قليلاً. ولم يحضر من أهله

الصعايدة أو القاهريين إلا أربعة أو خمسة، وظل الســرادق منصوبًا شبه خال يدوي فيه صوت قرآن لا يستمع إليه أحد.

ليالي شتاء ريفي بارد ينفذ إلى العظم. البيت الداوي سكن تمامًا. حط في غرفته وفي الأماكن التي كان يجلــس فيهــا فراغ الموت الجديد. أحسنت زوجته سكينة استقبالي في بيتها ورعايتي دون إزعاج. المرحوم رتب كل شيء منذ فترة قبل موته. كل شيء هنا باسمها. لي أنا ولمياء ودائع نقدية فــي بنوك. أوراقه الخاصة لي أن أنظر فيها وأفعل بها ما أريــد. هكذا قالت وهي تعطيني مفتاح الغرفة الفارغة التــي أعيــد ترتيبها وتنظيفها بعد الدفن.

جوار السرير حقيبة جلدية قديمة، مغلقة ومفتاحها صغير، فيها أوراق وكراريس قديمة كتب عليهــا "وزارة المعــارف العمومية"، ما أحلى خطك يا أبي، وما أجمل رائحة الأوراق القديمة.

الليالي والأيام التي أمضيتها هنا صنعت من مادة مختلفة. تحديقي عن قرب في حقيقة موته وغيابه قــد غيــر طبيعــة

الوقت والزمن. شيء ما جذبني وغاص بي إلى قاع سحيق صامت.. الضجة كلها انتهت إلى سكون.

تركتني سكينة أقضي أيامي في غرفته. وحيدًا صامتًا لا أكاد أفعل شيئًا سوى التحديق في السقف أو من نافذته المفضلة التي تطل على الحقول وأشجار بعيدة.

عرفت من سكينة أنه في الأيام الأخيرة لم يكن يغادر هذه النافذة إلا لكي يستحم مرات متعددة في النهار والليل. يغسل جسده مرات ومرات بأنواع مختلفة من الصابون المعطر.

ذهبت إلى المقبرة الجماعية في التل الترابي الكبير الكائن جنب الحقول. أمضيت وقتًا طويلاً معه هناك. عرفت وحدي أن دموعي قد تحجرت وأنني لم أعد قادرًا على البكاء. المقابر هنا أكثر رحمة من مقابر المدينة. رائحة الغياب والفناء واحدة.

النقود، والنجاح وكل أنواع الطموح تسكن هنا مع هؤلاء الرفاق الذين أدوس على ترابهم الآن وأشم رائحتهم تختلط مع الهواء الجديد.

نافذته جميلة حتى في الليل. تطل على كتلة مـــن الظـــلام تتراقص فيها قمم الأشجار كأنها رؤوس بشر يحاولون العودة إلى الحياة.

ودعت سكينة. عرفت أنني لن أراها أبدًا بعد الآن، حملت حقيبته الجلدية القديمة ورجعت إلى القاهرة يتيمًا.

* * * * *

(١٩)

حضوره صار كاملاً في حياتي بعد موته. كأننا عشنا العمر معًا، لم نفترق يومًا، لم أكن في حاجة لأن أقلب في أوراقه كثيرًا. كنت أعرف أغلبها.. سوى بعض خطابات مفاجئة كان قد كتبها لي وللمياء، خطابات حزينة وحيدة فيها رغبة حارقة في أن نبدأ معًا حياة جديدة. نجتمع كلنا حول أمي تحبها ونغفر لها "نبدأ من جديد" كلمة مكتوبة ومشطوبة عشرات المرات في خطابات لم ترسل أبدًا. لم يرد ذكر سنوات الخليج في أوراقه كأنه محاها أو أسقطها عمدًا. بدايات ومشروعات يوميات يتحدث في أغلبها عن الندم على هجر الكتابة، والتصميم على العودة إليها في انتظام.

صدى كلماته صار يطاردني في إيقاع ثابت كأنه دقات القلب. لم أدع أحدًا يطلع على الأوراق، ولا حتى كارين، أخفيتها تحت مكتبي، انظر إليها من بعيد وكأنني أقلبها وأقرأ فيها.

حواري الدائم يتسرب إلى داخلي، أسئلة غامضة لا أجد من أحملها إليه. أسئلة عن وجودي، عن نقودي الموجودة، والتي ضاعت، عن جدوى الطموح، والهمة ومعنى النجاح.

صارت هذه الحوارات والأسئلة تملأ ساعات تحديقي واجتراري للصور والعبارات التي لا تكتمل.

وجدت في الحقيبة أيضًا بعض الصور القديمة له في شبابه، هالني الشبه بيني وبينه. خاصة في الجبهة والشفتين. صرت أرى صورته دون ضوء ولا مرآة.

بقيت صامتًا ثقيلاً طوال المساء والليل، حاولت كارين أن تخرجني مما أنا فيه. لكنني أعود إلى حالي القديم. استأنفت طقوسها الليلية ودخلت إلى الفراش.

حملت همي وخرجت إلى الشوارع متأخرًا على غير العادة عندما تكون معي. تركت المكان الوحيد الذي سكنت إليه وكاد يحتويني، لم أكن قادرًا على أن أنطق كلمة إنجليزية واحدة أخرى. بدا لي المكان غريبًا.

في الشارع كان سواد فارغ ممدد ينتظرني، مجرد من الرغبة غير قادر على المقاومة. مررت في الشوارع الجانبية أتفقد الشحاذين الثلاثة. وجدتهم في أماكنهم المعتادة، حولهم نفس الأقمشة الخلقة وزجاجات البلاستيك الفارغة.

طرق الحياة بدت متساوية. كلها تؤدي إلى لا شيء.

في سوق الخضار المجاور يرتبون في الفجـــر العربـــات عليها أكوام الفواكه والخضروات الطازجة الجميلة. صـــافية مكتملة تحت الأضواء. بعهد قليل يمزقهـــا البيـــع والشـــراء وتفترسها ضروس الماكينة التي لا تـــرحم. عبـــرت أكـــوام الزبالة المحيطة بالسوق. واندفعت هاربًا حتى لا أشهد بدايـــة المعمعة.

وصلت إلى ضوء نافذة شوقي عامل، لم أصـــدق أننـــي رأيت النور.. اندفعت أقفز درج السلم.

تأخر كثيرًا في فتح الباب، جاء يجر أقدامه في الشبشـــب. الشقة خالية إلا منه، أمسك يدي وراح يزحف صوب غرفته البعيدة. قال: تامر، أخيرًا جئت، ابق معي، متعب جدًا هـــذا الصباح.

* * * * *

(٢٠)

المحبة الصافية التي أحملها لشوقي عامر أندر ما في حياتي، عاطفة تجعلني أنتمي إليه دون قرابة أو حسابات أو مخاوف وبلا شروط، لم يكن قدوة أو مثالاً، فقط جناحان مفتوحان في نهاية العالم. كأنني نشأت هنا معه. كل ما سببته لي نشأتي في الخليج وطفولتي المرتبكة في أسرة مدمرة، أجد عنده هنا قدرة على النظر إليها من مسافة ملائمة، أرى الامتيازات التي أعطيت لي دون عناء. وأرى ما حرمت منه دون سبب. أحس الارتباك القومي والفوضى في الكلام والأفعال حولي. الكل يتدافع ويكذب ولا يمكن توقع حركتهم التالية. معه وجدت حقائق بسيطة وبدهيات تستحق أن تعاش، أشعر معه بندية واستقلال، لم يسمح لي أبدًا أن أتكئ عليه أو أذوب فيه. كان يجعلني أشعر بأنني مستقل، وبأنني واقف على قدمي. كانت هذه أهم عطاياه.

عرفت معه أن الإشفاق على النفس والرثاء لها أسخف النقائص. وأن القدرة على رؤية الآخرين والاهتمام بهم مصدر قوة للنفس، وتجديد حقيقي للدم الفاسد، ضاعت أيامه كلها بين الاعتقال الطويل الذي لا مبرر له، وعمل سياسي

انتهى إلى لا شيء. وأصدقاء تسربوا كالماء، ومع ذلك فقد ظلت قامته منتصبة، وما يؤمن به في داخله أخضر متجددًا، ترى ذلك في وجهه، وفي سخريته التي لا مرارة فيها من تناقضات اليوم وارتباك الواقع.

لم يكن يشكو أبدًا. اليوم طرحته أرضًا نوبة برد شديد، جلست إلى جوار فراشه بعد أن أعددت له شرابًا ساخنًا وأعطيته قرص أسبرين. لم يكن الصمت معه أبدًا مزعجًا. بقينا صامتين نراقب ضوء النهار يقتحم الحجرة مع أصوات المدينة التي تستيقظ. عندما عرف أن أبي قد مات ضمني إلى صدره في قوة ونادرًا ما يفعل، ولم يقل شيئًا، أعطاني وأنا أغادره يومها كراسة قديمة جميلة.

أراه جالسًا في شقته ـ قلعته الأخيرة ـ يشرب قهوته في بطء كأنه واحد من الآثار الطيبة التي تجلب الخير والتي تركها القدماء على أرض هذا البلد المتعب. يدور حوله الحديث، وتحدث التغيرات والوقائع وهو ثابت واثق من شيء لا أعرفه، لا تصدمه التغيرات السياسية ولا يندفع إلى تحليلات أو نظريات عرجاء.. لكن يضع يده في أغلب الأمور على نقطة ضوء منطقية لم يكن يراها الجميع.. هل

هي الحتمية التاريخية التي قام عليها فكره وحياتــه؟ أم هــو العمل السياسي القديم الطويل الذي قام به وسط بسطاء الناس هو الذي جعله يتعامل مع الجوهري ويسقط الحشو والزوائد. وسط كل نماذج اليساريين الكذبة والمسترزقين يبقى شــوقي عامر اليسار نظيفًا حقيقيًا. يبقيه أملاً حتميًــا فــي ضــرورة التغيير، عندما تطبق عليه صور التشــوهات والانحرافــات ويضيق عليه الخناق جماعات المتسيسين ومحترفي الكــلام كان يقطع الحديث ويقوم واقفًا يمد يديه أمامه كأنه يســتنجد بالناس أو برب العالمين.

للمثقف والفنان عنده دور واحد هو الذي يبرر وجــوده. الاعتراض وعدم قبول ما هو قائم، والبحث الدائم عن إمكانية تغييره، الذين يدورون حوله وحولنا من فنــانين وسياســيين كانوا حلقة وطابورًا طويلاً من خدم السلطة والباحثين عــن مكاسب أو حلول شخصية لحياتهم. لــم يكــن يهــتم كثيــرًا بالصور الفردية أو التطورات الشخصية فقد كان يراها حالة عامة وإصابة وبائية أصابت الكل فحولتهم إلى جلــد ثعبــان فارغ لامع وبراق ولكن بلا وظيفة ولا فاعلية أو تأثير.

رحت أقلب في اسكتشات وتخطيطات قديمة له بالرصاص والفحم، لفلاحين عاش بينهم في طفولته، ووجوه من المعارف والأصدقاء حولنا، وشخصيات عامة تصنع وجهًا غريبًا للتحول الذي يجري ويدور. في الرسوم عناية فائقة بالتفاصيل وبالتنفيذ، وغنى تعبيري مذهل، تلفها موسيقى وإيقاع بعيد واحد، كأنه نداء لحلم قديم ببلد رائع. وواقع متناسق لم يعد موجودًا، لكنه مهم وضروري، ويجب استحضاره.

النهار يتقدم وأنا أسمع تنفسه المتعب العالي. حسبته راح في النوم. لما تحركت قال لا تذهب. أحضرت له شرابًا ساخنًا جديدًا تحامل على نفسه وجلس في الفراش وطلب أوراقه والإناء المليء بالأقلام وقال: قد تجعلني الحمى قادرًا على تبين خط يجمع كل هذه الأجزاء المبعثرة. قد أستطيع أن أرى لها معنى أو سياقًا.

عندما انخرط في العمل عادت إلى وجهه بعض الحيوية، تحت أشعة الشمس الواهنة التي تسللت إلى سريره العالي الوحيد.

* * * * *

(٢١)

وجه أمي الأسطوري الذي أحمله معي، انطبع في عينـــي وروحي وأنا أراها عندما كنت طفلاً صغيرًا في الخليج واقفة هناك تبكي جنب المستنقع. وقمر شاحب ينعكس جنب وجهها في الماء الساكن، هواء ثقيل ورائحة سمك ونفط وسفن بعيدة لا تتحرك.

أقدم ذكرياتي على الإطلاق. مركبة من مادة كأنها الأحلام ومن حوارات متعددة مع أمي وقت أن كان بيننا حديث. أراه يومًا ماثلاً بعيدًا أحاول جمع تفاصيله كأنه قافلة تاهت وتشتت في صحراء. العائلات المصرية الثلاث التـــي كنـــا نعرفهـــا وبعض المعارف وزملاء العمل خرجوا في يوم عطلة إلـــى رحلة خلوية في صحراء تطل على بحر ســـاكن مخنـــوق. الرائحة أقوى ما أذكره. سمك، ونفط ورائحة عـــرق كأنـــه رائحة نقود جديدة.

قالت لي أمي يومًا إنها تذكر جيدًا تلك الرائحـــة. معهـــم تلال من الأطعمة والمشروبات وحشد من أولاد لا أعـــرفهم في سن متقاربة.

تلك كانت أيام الحريق الذي ظل مشتعلاً بين أمي وأبـــي. هي محبوسة قلقة عصبية مصممة على الرجوع إلى مصـــر. هو الآخر بعيدًا عنها مصمم على البقاء متمســك بمشـــروع غامض لا يشرك فيه أحدًا. وأنا ولمياء تائهان نتعثر وســـط غابة سيقانهم. نساء بدينات افترشن الرمـــل كـــأنهن غـــرف مربعة مغلقة. ارتدين ملابس غريبة، وقطعًا ضخمة من ذهب وأحجار حمراء، يتكلمن بصوت عال ولهن ضحكات بذيئة لا أطيق أن أسمعها حتى الآن. أبي وسط الرجـــال فـــي حلقـــة مستديرة، عندما ألمحه لا أعرفه، يتكلم ويضـــحك بطريقـــة غريبة. أنا وسط حشد الأولاد والبنات أختنق بغربتي التي لم تفارقني أبدًا.

الوقت أبدًا لا يتحرك، عشرات الشموس في كبد الســـماء. لا يقطع صفرة الكون حولي سوى ذباب يلسع ودموع تنهمر لتخنقني ثم تجف. عندما يلتفت إلي أحدهم أو إحداهن يصـــر على أن يحشوني بالطعام أو أن يداعبني في غلظة لا أفهم لها مبررًا.

نمت تحت ظل خيمة نصـــبوها واســـتيقظت فـــي نفـــس الكابوس بحثت عن أمي بينهن، لكني وجدتها منفردة وحيدة.

جلسنا صامتين. هدأ رعبي قليلاً في ظل صمتها عندما عدت وفقدتها مرة أخرى، وضاعت وسط الغرف المربعة المغلقة. انتابني رعب وكأنني أصارع وحشًا له ألف ذراع. كل ما أعرف ومن أعرف بعيد مستحيل لا يمكنني الوصول إليه.

عندما بدأت الشموس المائة تغرب ويهبط الليل مع نسيم لزج. دبت في الجميع حركة نشطة يجمعون متاعهم وأولادهم ويتصايحون في سعادة كاذبة. لمحت أمي بعيدًا تقف وحيدة وقد دخلت إلى الماء الذي امتد حولها كأنه مستنقع لا نهائي.

جريت ناحيتها. وجهها مسطح بارد من الضوء الشاحب. وعيناها تائهتان ضائعتان لا محالة، ألقيت نفسي عليها وبللنا ماء ما زلت أشم على جسدي رائحته.

حكت لي أمي ــ وما زلت أذكر ــ غضب أبي علينا، وصولته الصارخ بعد أن رجعنا إلى البيت. نمت ليلتها في حضنها على الأرض، كان ملمس الموكيت المفروش خشنًا ولونه أخضر. كلما تحركت يداي لامست بلولةً أحسبها دموعها أو دموعي.

ذكرى مرة أليمة كأنها بئر مفتوحة.

* * * * *

(٢٢)

تسعة أشهر كأنها فترة الحمل، أنجبت بعدها هواء، اختفت كارين، رحلت وخلفت لي ميراثًا ضخمًا من القصائد المجهضة والأماني الهشة التي ارتطمت بالجدران، حدث كل شيء في دورة صغيرة من دورات الزمن التي أحاول أن أفهم كيف يتسرب كرمال من كف عجوز. تحدث الأحداث صغيرة متتالية، عميقة أو على السطح، ثم فجأة يتغير وجه الدنيا فإذا بي وحدي معها عجوز شمطاء لا مهرب منها ولا فكاك.

هل بدأت الأمور تتداعى في الفراش، أم على مائدة الإفطار، أم بدأت المأساة وأنا عاطل أحدق في فراغي الداخلي حيث لا تواصل بل غربة وانحسار. اندفعت كارين تعمل، تملأ اليوم باللقاءات والقراءة وتدين الملاحظات، ثم تجلس لكي تكتب حتى وقت متأخر في الليل، وأنا أدور في دوائري الجهنمية نفسها: المقهى والشوارع، والأصدقاء. أقف على أعتاب العمل ولا أقدم! أخلف المواعيد والأنظمة التي نضعها. أجد لنفسي دومًا عذرًا داخليًا أو خارجيًا لزجًا،

وأكسو وجهي عندما أضبط متلبسًا، بابتسامة بريئة أو غضب طفولي نفور..

مرات تحدثت عن قيمة الوقت. وليلاً تحدثت عن مسافة تولد، ومكان لا يمكن منه الرجوع. أمسكت وجهي بين يديها، وحدقت في برجاء وابتهال، هل كانت تريد أن توقظ شيئًا مستحيلاً. ما أثقل اللحظات الماضية والكلمات عندما نعرف أنها ستظل معلقة فوق رؤوسنا إلى الأبد! كيف لم أسمع ساعتها ما تقول؟

ليته كان عراكًا أو شجارًا، كان خمودًا باردًا قاسيًا للشيء الحقيقي الذي لد بيننا بلا ميعاد، وتحول أيضًا إلى هباء دون ميعاد، عيناها تعبراني كشيء، لا ضوء فيهما يبرق لي. لا تنتظر، مشغولة، عيناها علي ولا تراني. صارت مثل أي شيء آخر، لا توقظني عيون البنفسج، أسحب ورائي اللحظات التي كانت. صرنا لهم بالشيء ولا نفعله.

هناك شروخ أو كسور لا تجبر ولا تلتئم أبدًا. تظل دائمًا تجرح الأصابع والروح. حاولت أن أتدارك الأمر. أن أتراجع، أن أعد بأن أكون مفيدًا، كل هذا كان يزيد الأمر سوءًا. تساقط الضوء الرومانتيكي الذي كان يكسو المكان

والزمان معها، كما كان سيف الحب باترًا، كذلك نزلت مقصلة الغربة قاطعة لا ترحم. اكتفت بمكان صغير في حجرة النوم تعمل فيه في صمت وبلا توقف، تأكل قليلاً وهي واقفة في المطبخ. واكتفيت أنا بسماع شرائط المصحف المرتل أو الموسيقى والتدخين، تركبني غربة وضيق وأنا أسمع حديثًا طويلاً بالإنجليزية على شريط أو في تليفون. أجد أي سبب يدفعني للخروج، عندما أعود أجدها مشغولة بعيدة لا تنتظرني.

خرجت من بين شقوق الساعات عشرات التفاصيل البشعة الصغيرة التي لم تكن موجودة من قبل، في الخروج والدخول والطعام والشراب في طريقة النوم وارتداء الثياب، تفاصيل من الرأس حتى أطراف الأصابع، أحسبها غالبًا على حق، وعلى أنا أن أعتذر في ضيق وبلا اقتناع.

تحصَّنت وراء التصرف الصحيح، لم ترتكب حيالي خطأ ما، وبذلك تحملت وحدي الذنب والتقصير. لم يعد هناك لي عذر ولا عزاء. عندما قمت من الفراش لكي أدخن سيجارة رجعت فوجدتها قد استدارت، كانت تبكي. لم يكن الأمر مفاجأة فقد كانت ذابلة مهمومة منذ أسابيع. قالت ووجهها

مدفون في المخدات إنها حاولت وإنها لم تعد تستطيع، قالت في حياد بعد أن هدأت إن ما سيحدث بيننا بعد الآن بغيض، إن لم نعرف أن نصنع بحياتنا معًا ما نريد، فلنعرف على الأقل متى ننسحب. حدقت في سقف الغرفة، ينعكس عليه ضوء فجر كاذب وتصلني أصوات أجراس خيول السوق البعيدة، لم أجد في روحي أي كلام منطقي أرد به.

بعد نوبة غضب عبثية قمت بها ذات صباح كي أمتحن ما بقي من حياتنا، قالت وهي تضع رأسها بين يديها على مائدة الإفطار: أنت قادر على أن تضيع حياتك، وأنا لا أملك ذلك ولا أستطيعه. لم أكن أعرف أنك تقف على أرض بعيدة، لا تطولها يداي ولا حبي، سأفتقد دومًا الأمل الذي عرفته معك.

كان فراقًا متحضرًا أليمًا راقبتها وهي تقوم بإجراءاته تتوقف عند أشياء عزيزة للحظة ثم تزيحها دون تردد. أراها عادلة قوية، وأستعذب إحساس الغريق، بدا التداعي قويًا لا أحد يقدر أن يوقفه، من أي مادة صنعت أيامنا الطيبة معًا حتى تحولت هكذا إلى صمت طيني. أحلام الشعر مستحيلة. الحرية والفن آفاق ليست لي، ظهرها نهاية العالم. بذوري في الأرض ميتة، تبقى الحياة بعدها خرابة أو أرضًا جرداء.

أركب سمكة وأنزلق من على ظهرها وسط المحيط، راحت من حياتي عيون البنفسج.

قالت معزية: معك رأيت العالم في ضوء لم أكن أعرف أنه موجود. معك سمعت المعنى والصدى الحقيقي للكلمات. اللحظة وحدها مفردة لا تكون سوى حلم، الحقيقة في الاستمرار. قالت لي كثيرًا هذه المعاني، وبصيغ مختلفة. كتبت أوراقًا كثيرة متناثرة تقول فيها إن كل هذا لا يعني أنها قد توقفت عن حبي، لكنني كنت أكتشف في ألم وذهول، وللمرة الأولى، أن لها مشروعها الخاص.. وأنا لم يعد لي مكان فيه.

تخلصت من أوراق كثيرة، مزقتها في ضيق وغضب إلا الورقة الأخيرة التي تركتها لي على المنضدة في الصالة يوم أن سافرت، لم أمزقها لكنني لا أدري أين ذهبت. مكتوبة بحروف كبيرة بقلم أخضر. أحفظ ما كتب فيها لكنني لا أجدها في أي مكان: "وداعًا حصاني. لا داعي لأن تذهب معي إلى المطار. الحصان لا يذهب إلى المطارات.

* * * * *

(٢٣)

رقصة الديك المذبوح أمام الكهف الذي يبتلع الناس في "كفر شوق" ظلت هي الصورة التي تسكنني. تشد روحي وعيوني. ويشرد فيها دومًا خيالي. قصة أبي، ومشروع حياته الأدبية التي لم تتحقق. انتقل الحلم إلى مسيطرًا من الأوراق الكثيرة التي وصلتني، مشاريع القصائد والقصص التي حاول كتابتها، ولم يكملها أبدًا. كل مرة تتركب لها معان جديدة، في محاولة مستديمة ــ مني ومنه ــ للقبض على معنى لواقع حياتنا. الجحيم الذي عاشه وأعيشه.

جاء الطوفان فعلاً، ولم يبق إلا أنا وحدي أسرع الخطو في الشوارع الجانبية، وأتعثر في الشحاذين الثلاثة الرابضين لي دومًا جنب الجدران.

ماذا فعل بأبي ذلك الفقر الموجع الذي عاشه في صباه وشبابه؟ رحلة البحث عن النقود في كل الكهوف التي قابلها، النقود التي حرقت روحه وأيامه ثم ضاعت منه. هل كان يهمه حقًا أن يترك لي شيئًا. وأي شيء. دائرة جهنمية ندور فيها كقدر محتوم. مع ذلك العناء الروحي الذي ورثته، لا أعرف أن أعيش كبقية خلق الله. مع الشقة والنقود المودعة

في البنك أدور في شعور حارق دائم بعدم الانتماء لشيء. وبأن جسدي يفتقد الخطوط الخارجية. أضيع دومًا في الموقف وفي المكان. كيف يمكن أن أظل أواجه هذا الفراغ الداخلي الذي يشبه الجوع الذي لم أجربه أبدًا.

عندما أرى المؤامرات ومشاريع الحياة الصغيرة التي تحيط بي في كل مكان وأراها تدور بشكل أو آخر حول النقود أقف ساكنًا لا أفهم. كان جنب يدي دائمًا ما أحتاج من نقود من أمي أو أبي. كان علي فقط أن أ"لب. أضيق بها وأكره الطلب.. أكتفي بأن أظل يومًا أو يومين صامتًا ساكنًا، ثم تأتي النقود التي لا تشتري لي شيئًا مما أريد. وحدي حقًا بلا طموح ولا رغبة في نجاح أو مقاومة.

سادت شقة لاظوغلي حالة بشعة كئيبة بعد سفر كارين، أصبحت مكانًا مهجورًا — لكنني أعيش فيه، في ركن منه. الشيء الوحيد الذي ينبض فيه هو تلك الحقيبة الجلدية التي تحوي أوراق أبي. أتنفس هواء متربًا ودخان سجائر دون أن أفتح نافذة أو أخرج. أحيانًا أخط على الورق كلمات لا تحمل سوى الفراغ الذي يسكنني. وأرى الحياة كلها لحظات فاتت.

أرتدي ثيابًا واحدة لا أغيرها. أخلعها لأرتديها هي مرة أخرى. أدافع بها عن نفسي.. وأمسك بما تبقى مني. صبري على الوجد يثير استغرابي، ولأنني كرهت الغوص في رخاوة الإشفاق على نفسي والرثاء لها، صرت كقاتل محترف، أتعمد إيذاءها وقطع كل وسائل الاتصال. أدخل أكثر فأكثر إلى شرنقتي التي لا يثيرني في داخلها شيء، وأستغرق في نوع من الوعي المؤلم بتفاصيل لا تهم أحدًا.

مرَّ بي زمن سائب لا أعرف كيف أحسبه. تتغير الحوادث حولي والفصول. والوعي الحارق المؤلم يتزايد مؤكدًا لي انفصالي وعدم قدرتي على المشاركة. كأن حياتي انتهت قبل أن تبدأ، كل الضوضاء والعنف حولي والزحام.. أضواء تنير وتنطفئ وأنا جامد كصنم.

الألم الكبير يصنع الشعراء. هل يمكن أن أصبح الآن شاعرًا. الشعراء ينتحرون، العباقرة منهم يموتون مبكرًا. أنا أدب على الأرض وآكل الطعام. لا شعر ولا غياب. حضور ـــ فقط ـــ بلا مذاق، في الركن الذي يضيق حولي يومًا بعد يوم بحثت عن أشياء بديلة غير النقود والطموح والرغبة في

النجاح فلم أجد. الشعر ضوء في نهاية النفق. لكنه ضوء مستحيل ما صار البنفسج مستحيلاً.

* * * * *

(٢٤)

سفر حسين إلى الخليج الذي يتم بعد أيام كـــان هـــو مـــا أخرجني من الشرنقة، اختلط علي الأمر والزمن كأنني أغيب في لحظة من لحظات حلم، أنزل من رصيف الشارع فتقـــع قدماي في بئر سحيقة.

عندما سمعت الخبر فكرت في نفسي أولاً وقلت لقـــد تـــم الحصار الآن أصبحوا كلهم أعدائي.

دق الباب بعنف فلم أكن في الأيام الأخيـــرة أفـــتح أو أرد على أحد. سحبته إلى ركني المترب وأشعلت ســـيجارة. لـــم أكن أرتاح للاقتحام حتى من حسين كاظم. أجد صعوبة فـــي الهبوط المفاجئ من وحدتي التي تتصنع الاكتفاء. فتح النافذة المطلة على القاهرة القديمة ففاجأني الضوء العفِـــيّ وطنـــين الحياة الشرسة.

خبط بكوب الشاي على الزجاج المتـــرب إلـــى جـــواري وأعلن الخبر. يسافر بعد أسبوع. التذ١كرة في جيبه. العمـــل في سوبر ماركت كبير. الأجر تقريبًا ما يقبضه أبوه في سنة.

فارق كبير بين ما نفكر فيه وما يمكن أن نقوله. وقع قلبي في هوة سحيقة وانتصبت جالسًا في الســـرير. فـــي الفتـــرة

الأخيرة كان حسين قد مل من اكتئابي ومزاجي المتقلب، نعد نلتقي إلا نادرًا. كنت أسمع أنه دخل مؤخرًا في علاقات ودوائر مدمرة تأكل كرامته ولحمه الحي، لكنه ظل دومًا عندما نلتقي متمردًا على كل شيء وأي شيء. حكَّاءٌ بارع، قريب الدموع والضحكات، وبقيت أعطيه أمانًا لا أعطيه لأحد غيره.

في البداية عندما كان موضوع سفره مطروحًا من الناحية النظرية قلت له كل شيء. تحدثت كثيرًا ــ عندما كان الشرح ممكنًا عن المصائب التي شكلت حياتي. وعن الهم المقيم الذي أثقل قلبي من جرَّاء الخليج ونقود الخليج. حدثته عن سرطان النفط وما فعله في عائلتي وفي قدرتي على الرؤية وإحساسي بالناس.

قلت له في ليالي السير الطويل على كورنيش النيل إن هذا طريق مرعب، وإن من يستطيع أن يهرب من السير فيه فقد فاز بنفسه وبحظ عظيم، من الواضح أن الكلام كله يسقط قبل أن يصل إليه. لأن ضيقه بالفقر وبالحياة مع أبيه كان عظيمًا.

الآن وقد خاض لشهور أهوالاً إدارية وعملية ناهيك عن الأهوال المادية فلم يعد من الممكن الحديث عن شيء أو

مناقشة أي قضية. الشروط التي يسافر بها ونوع العمل وظروفه كانت كما عرفت مجحفة ومهينة، لكنه لم يعد يستطيع الصبر يومًا واحدًا أو احتمال بخار الغضب والضيق الذي يعيش فيه. فلم يبق لنا سوى الاحتفال بتوديعه. بسهرة مفتوحة في مقهى "الاستقلال".

ذهبت يومها إلى المقهى في الموعد ثقيلاً مهمومًا حزينًا عليه وعلى نفسي. كالعادة كانت السهرة حمقاء وزادتها المناسبة التهابًا ودموية. اجتمع خمسة من الشباب غيرنا. ولم يكن أحد يسمع لأحد. كلهم "أسياخ" متشددون لا تستطيع أن تفهم في النهاية على ماذا يعترضون، ولا إلى أي حد يعتقدون فعلاً فيما يقولون.

بعد عدد من زجاجات البيرة كادوا أن يلتهموا أطراف حسين كاظم. بدا لي هو غريبًا هذه الليلة. متماسكًا يخفي سعادة داخلية، وثقة جديدة عليه. كان يدلي بتصريحات عن مشاريع وخطط، ويستشهد بي لدعمه وتأييده.

أكثر الزملاء تشددًا كان هو في الحقيقة أكثرهم حسدًا لحسين على فرصة السفر. فقد كان فقره أشد وظروفه أصعب.

عندما سكر وأفلتت منه نفسه، سحبه الجرسون بعنف خارج المقهى، كان يصبح فينا مهتاجًا "ألأنه ليست هناك قبور في مصر تأخذوننا لنموت في الصحراء..؟!!".

آخر الليل تركني حسين وقفز في الميكروباص ولم أشاهده بعد ذلك.

* * * * *

حاشية

حقيبة جلدية جديدة، صغيرة مغطاة بالتراب، بها قصاصات ورق كثيرة بعضها رسائل قصيرة من كارين، بعضها عليه رسوم بالرصاص غير مفهومة، أغلبها لأوراق شجر أو صبار. وصور ممزقة لتامر وكارين، وقطع شمع، وحبة رمان صغيرة جافة وأشياء أخرى، هذه بعض الأوراق التي كانت في الحقيبة.

* * * * *

* رجفة الجسد *

ليته يرتجف

مرة واحدة أخيرة

كي أعرف أنني حي.

هزة واحدة من الرأس للقدم.

لا دبيب.

لم يعد جسدي ــ أبدًا ــ يرتجف.

حزن صامت، معقم، عازل.

حط على أطراف الأعصاب.

قطع عني كل اتصال.

واقفاً فوق قبر أبي.

جسدي لم يرتجف.

لا دموع ولا ألم.

كنت ــ فقط ــ أريد أن أدخل.

أجلس إلى جواره.

* * * * *

* هكذا... الآن *

نبحث مئات من كلاب ميكانيكية.

داخل عربات فاخرة ثابتة.

ليس بداخلها أحد.

رعب الشحاذين الجوعَى.

في قلب قرية سياحية فاخرة.

يا أولاد الشوارع اتحدوا.

لم يبق وقت لكي تغطوا عوراتكم.

* * * * *

* عيون البنفسج *

تحت ضوء نجفة خشبية.

رأيت حبي في وجهها والأصابع.

قالت لي العروق تعالَ.

سكنت عندك في بيت

أشم فيه نفحة الجبل.

يا نفحة الجبل.

صدرك وسادتي الحرير.

في داخلك مقعدي المريح.

عيونك مقدسة.

ألف جرو حديث الولادة

يبتسمون في حضورك.

* * * * *

* القرآن.. والشعر *

يسقط الشاعر منا صريعًا بين إيقاع الشعر العربي القــديم الذي يدوي في روحه، وبين معارفه ومشاعره الحديثة، وفي ضميره أيضًا الإبداع الذي حققه شعراء العالم، بــين فخامــة

أسطورية، وحميمية الصورة والتفاصيل. بين المعرفة العلمية الحديثة التي أحالت الكون إلى صراع وحشي داخل نواة الذرة. صريعًا يسقط الشاعر، يصرخ في أرض غريبة. لا هو يفصح ولا يسمعه أحد.

من يسمع الشعر الآن؟ لماذا يتوقف أحد للحظ واحدة أمام أجمل أبيات الشعر.

يا سحر القرآن..

كيف تماسكت آياتك.

كيف قادت "قل هو الله أحد" إلى "الله الصمد"، أي راحة وسعادة منحتها آياتك لملايين ملايين البشر.

* * * * *

* أبيات للشاعر علي منصور *

"من دل أحزاني عليكم

يا فرادى

في الزحام".

* * * * *

* أبيات للشاعر عماد أبو صالح *

يدفعون الأبواب خلفنا

يرفضون ـ حتى ـ أن يرموا لنا رائحتنا

من الشرفات.

يصر قمرهم أن يتبعنا

رغم أننا نتخفى منه في حارات جانبية.

* * * * *

* ظهر القرية *

بلدي لا تعرفني.

داست حوافر البلدوزر

أشجار أبي القديمة.

تفرس الناس في وجهي.

قالوا: من، وابن من، وبكم؟

شاهدت في التليفزيون

مذبحة ومقبرة جماعية.

وأطفالاً لا يتنفسون.

أحسن ما في التليفزيون

أنه عابر.

صورة تحدث في مكان بعيد.

* * * * *

* شرنقة *

شرنقتي

هشة جدًا، وضعيفة جدًا

لكنها أعجوبة في إحكام النسيج.

شرنقتي، ولدت بها

لا يسكنها غيري

لا يدخل إليها أحد.

وحيد فيها ومشغول جدًا

حتى أنني لا أعرف

ميعاد الخروج.

* * * * *

"تمت"